عظـــات عن
القديس بولس الرسول

للقديس يوحنا ذهبى الفم

ترجمة وإعداد:

الراهب القمص/ مرقوريوس الأنبا بيشوى

صاحب القداسة والغبطة

البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

ونيافة الحبر الجليل الأنبا صرابامون

أسقف دير الأنبا بيشوي

تقديم الناشر

يسرّ مؤسسة القديس باسيليوس أن تقوم بنشر هذا الكتاب للقديس يوحنا ذهبيّ الفمّ عن القديس بولس الرسول.

لقد ترك لنا ذهبيّ الفمّ تُراثًا أدبيًا ضخمًا تميّز بالروحانية العالية والطاعة لإنجيل المسيح، ولعل شهرته الفائقة في الوعظ وتفسير كلمة الله، مع احتماله الآلام من أجل الحق جعلت منه شخصيّة محبوبة ومُكرمّة في الكنيسة شرقًا وغربًا. والقديس يوحنا هو الأب الأنطاكي الوحيد من آباء الكنيسة في عصره- الذي حُفظت كتاباته بأكملها تقريبًا، والتي شملت عظاته منذ أن صار كاهنًا في أنطاكية ثم بعد سيامته أسقفًا بالقسطنطنية (٣٩٨م). تميّزت هذه العظات ببساطة التعبير والوضوح مع احتوائها على أمثلة كثيرة من العهدين وأيضًا من الواقع اليومي في عصره، لهذا صارت هذه العظات بحق انجيلاً مُعاشًا، تكشف عن دراية واسعة في مُعالجة المشاكل اليوميّة بإسلوب إنجيلي.

ومن بين هذه العظات القيّمة هناك سبع عظات عن القديس بولس الرسول ألقاها ذهبيّ الفمّ في عيده، حيث كان يراه كقديس لم يفوقه أحد قطّ من بين رجال العهد القديم أو الجديد، فقد قارن بينه وبين رجال العهد القديم من هابيل حتى يوحنا المعمدان وذلك ليُظهر أنه فاق الجميع، واصفًا إيّاه أمام المؤمنين كرجل المحبة والآلام، كرجل الغَيرَة والعزم وأيضًا كرجل الفرح، وفي كل هذا كان يعمل على حثّ المؤمنين على أن يتمثلوا بإيمانه وفضائله ويسلكوا في نهجه.

وإذ نشكر الأب الورع القمص مرقوريوس الأنبا بيشوي على الجهد المبذول في ترجمة وإعداد هذا الكتاب نرجو الرب أن يستخدم هذه العظات لمنفعة

أولاده بصلوات القديس بولس الرسول والقديس ذهبيّ الفمّ والقديس باسيليوس وطلبات أبينا الطوباوي البابا شـنوده الثالث وشريكه في الخدمة الرسولية الأنبا صرابامون أسقف دير الأنبا بيشوي.

وللثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس

المجد والإكرام من الآن وإلى الأبد،

عيد القديسين بطرس وبولس

١٢ يوليو ٢٠٠٧ م

٥ أبيب ١٧٢٣ ش

د. جوزيف موريس فلتس

مدير مؤسسة

القديس باسيليوس

تمهيـــد

القديس بولس الرســول هو ثالث عشر الرسل بحسب الإنجيل، وهو الرسول الذي حمل نور المسيح للأمم.

هو ألمع شخصية بعد المسيح في الأناجيل، وفي بقية الأسفار في العهد الجديد. وحياة القديس بولس مستمدّة من حياة المسيح، بحسب تعبيره هو: "... فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ" (غل٢: ٢٠) هذا بالنسبة لنفسه، أمَّا بالنسبة لنا فيقول: "كونوا متمثّلين بي، كما أنا أيضًــا بالمسيح" (١كو١١: ١). وبهذا انطلق يكرز ويعلّم ويشــرح ويَفْصِل بإســتقامة كلمة الحق، بيقين وثبات واعتداد، بالروح الذي كان يعمل فيه ويتحرّك هو على هُداه.

لقد كان هذا القديس هو القوّة الفعّالة المحرّكة للكنيسة في العصر الرسولي، وهذا أيضًا بحسب تعبيره: "ولكن بنعمة الله أنا ما أنا، ونعمته المعطاة لي لم تكن باطلــة، بــل أنا تعبت أكثر منهم جميعهم (الرســل). ولكن لا أنا بل نعمة الله التي معي" (١كو١٥: ١٠).

هو أكثر الرســل قاطبة مَنْ تكشــفّت لنا صفاته الشخصــيّة وأموره الخاصة بحياته، سواء تلك التي ذكرها هو عن نفسه مباشرةً، أو التي يَسْهُل استخلاصها من كتاباته وأعماله. ويكفي أن نعرف إنه من بين الســبعة والعشــرين سفرًا التي يضــمها العهد الجديد، له منها أربع عشــرة رسالة. وهذه الرسائل في مجموعها تزيد عن رُبع مدوّنات العهد الجديد بأكمله.

وحيــاة القديس بولس الرســول بــكل الزَخْم الروحي الــذي يفيض منها، مع عراكه ضد العالم الذي لم يهدأ لحظة، إنما تُصور لنا صفحة من صفحات تاريخ المسيحية المشرق في عصرها المبكر جدًا.

ثلاثون عامًا قضاها القديس بولس الرسول في الترحال، يضرب بعصاته فوق الطرق الوعرة، تحت رحمة اللصوص والسيول، ويمخر البحار بسفن الشراع التي طالما تكسّرت به ليقضي لياليه في العمق. لم يلتقط فيها أنفاسه إلاّ في السجون تحت المقطرة والقيود.

كم كانت إرسالية القديس بولس موسومة بأتعاب تفوق الحصر وتفوق التصّور أيضًا، ومنذ أول لحظة حمل فيها نير المسيح! فقد استلم القديس بولس إرساليته من فم المسيح مختومة بالألم والمعاناة، ليس في تعدّد أنواعه وحسب، بل وعلى مستوى "الكم": "سأريه كم ينبغي أن يتألّم من أجل اسمي" (أع ٩: ١٦).

أمَّا هو فكان يستمرئ هذا العناء الشديد، بل وتمادى في التغّني بشدائده الخاصة حتى إلى الافتخار، بل وكان يطلب منها المزيد.

أمَّا سرّ اعتزازه بآلامه، واحتساب آثار الجروح في جسده - من ضرب السياط والعصى، كأنها سمة للفخر - فهو الصليب. فصليب المسيح كان يسطع في قمة إدراكاته ووعيه (١كو٢: ٢)، حتى عَكَسَ له معنى الألم والمعاناة والاضطهادات والمؤذيات، حتى الموت نفسه بكل تهديداته صار عنده مسّرة وشهوة يشتهيها.

وقد كانت قناعته أنه مختار ومفرّز من البطن (غل١: ١٥) للشهادة للمسيح حافزًا له لأنه يعتبر المسيح حياته، وأن الموت من أجله ربح (في ١: ٢١). كما أن ظهور المسيح له من السماء، جعل وجه المسيح ينطبع في قلبه بإشراق نور دائم ولهيب لا ينطفئ (٢كو٤: ٦)، وقد صاغته النعمة ليكون ما كان (١كو١٥: ١٠)، لذلك كان يشعر أنه رسول لا يقل عن سائر الرسل (٢كو١١: ٥)، فقد دعاه الربّ من السماء شخصيًا لحمل الاسم (غل١:١، ١٥).

لقد كان الرسول بولس شاهدًا لما رأى وسمع، كما تلقى من الله على فم حنانيا: "لأنك ستكون له شاهدًا لجميع الناس بما رأيت وسمعت" (أع ٢٢: ١٥).

هذا كله أعلنه القديس بولس الرسول عن نفسه، ليدرك القارئ إنه إن تكلّم عن المسيح والله، فالمسيح هو الله المتكلّم فيه: "نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا" (٢كو٥: ٢٠)، "برهان المسيح المُتكلِّم فيّ" (٢كو١٣: ٣).

والآن وبعد ألفي سنة، عندما تُقرأ رسائله في الكنيسة، يصمت السامعون لأن القديس بولس يتكلّم!!

بين القديسين بولس وذهبيّ الفمّ

لا يستطيع أحد أن يتجاهل محبة القديس يوحنا ذهبيّ الفمّ للقديس بولس، الذي تعلّق جدًا بشخصه من خلال كتاباته، إذ قيل أن تلميذه أراد أن يخبره عن إنسان جاء لمقابلته، وإذ فتح الباب وجده منهمكًا في القراءة وبجواره شخص مهوب يتحدّث معه... فلم يَرِدْ أن يقطع حديثهما. وبعد ساعات إذ عاتبه القديس ذهبيّ الفمّ لماذا لم يخبره بحضور هذا الشخص أجابه أنه فتح الباب ووجده منهمكًا في القراءة ومعه شخص مهوب، فأجابه القديس أنه لم يكن معه أحد، لكن التلميذ أصرّ على موقفه، ولما أراه القديس الأيقونات أشار إلى أيقونة القديس بولس وقال له أن هذا الشخص بعينه كان بجواره، فأدرك القديس بأن القديس بولس الرسول نفسه كان حاضرًا أثناء قراءته لأسفاره.

كانت محبته للقديس بولس الرسول تفوق الوصف. وقد كان يقول: "قلب بولس هو قلب المسيح. فاقتدوا به أيها الإخوة كما اقتدى هو بالمسيح" وكانت أيقونة القديس بولس في غرفة القديس يوحنا دائمًا.

لقد أحب شخصيّة الرسول بولس وسجَّل لنا تفاسير كل رسائله. أحبّه ككارز مملوء حبًّا تجاه البشـرّية كلها، فقد حَمَلَ القديس يوحنا ذهبيّ الفمّ هذه السـمة عن الرسـول المحبوب جدًا لديه. وتظهر محبته له أنه إذا ما تحدّث عنه يصـعب عليه العودة إلى موضـوعه الأصـلي فمـن كلماته: [في تعليمي أُكثر الاستشـهاد بتعاليم بولس المقدّسـة[1]] ماذا يحدث لي؟ لنهرب سـريعًا، فإن بولس يسـتولى علـيّ، ويبعـد بي خارج الموضـوع! أنتم تعلمون أنني كثيرًا مـا أطارد فكرة معيّنة، وإذا بي أسقط فجأة على بولس فيحتجزني بقوة كلامه ، ولا أستطيع أن أنفصل عنه حتى النهاية][2] .

وفـى أول عظة على رسـالة الرسـول بولسـ إلى أهل رومية ابتـدأ بعبارات الإعجاب بالرسول قائلاً [أننى أحرص على قراءة رسائل الطوباويّ بولس مرتين أسـبوعيًا، وغالبًا ثلاث دفعات أو أربع كل أسـبوع عند الاحتفال بذكرى الشهداء والقديسـين. أنعم بالبوق الروحي بسرور، أنهض متقّدًا بالرغبة في التعرّف على الصوت العزيز علىّ.

يخيّل لي أني أهواه تمامًا، بل كأنه حاضر أمام بصيرتي.

أمسك به وأتحدّث معه.

لكنني أحزن متألمًا لأن كل الناس لا يعرفون هذا الرجل كما ينبغي...

إني أعرف هكذا ليس بسـبب اسـتعداد خاص بي أو ذكاء حاد، إنما إن كنت أعرف شيئًا فبسبب التصاقي الدائم مع هذا الرجل وميلي الشديد نحوه] [3]

(1) Non ad grant PG 50: 635

(2) In Ego Don PG 56: 146

(3) In Rom. Hom. 1

وقد ختم شـرح الرسـالة إلى أهل رومية بمديح فائق له إذ أعلن شـهوته أن يرى قبر الرسول بولس ليقبّل رماد جسده، يرى العينان اللتان لم تعرفا النوم بل سـهرتا في نصـف الليل، ونَظَرّتا الأمور غير المنظورة. يرى آثار قدميّ ق. بولس اللتـين كانتا تجريان في العالم بلا ضـجر، اللتـان كانتا مقيدّتين في المقطرة حين اهتزت أساسات السجن[٤].

وقال عنه إنيانوس من Celeda في القرن الخامس أن القديس يوحنا لم يكن يصـف الرسـول العظيم بولس، بل كان كَمَنَ يقيّمه من الأموات ليجعل منه مَثَلاً حيًّا للكمال المسيحي.

اسمعه عندما يقول:

[عندمـا أسـتمع إلى قراءة رسـائل بولس، أتهلّـل فرحًا، وقد أخذتني نشـوة الإصـغاء إلى ذلـك البوق الروحي، ويتملّكني شـغف شـديد به، فأعرف صـوت صـديقي، ويخيّل لـيّ أني أشـاهده بأم العين وأسـمع نبرات صوته. بيد أنى أتألم من ناحية أخرى، ويشـقّ عليّ أن لا يعرف جميع الناس ذلك العبقري، كما يجب، بل منهم مَنْ يجهل حتى عدد رسـائله. وليس هذا لبلاهتهم، بل لعدم رغبتهم في أن تكون هذه الكتابات دائمًا بين أيديهم.

أمَّـا أنا، فإذا كنت أعرف شـيئًا، فذلـك يرجع، لا أن لي عقلاً متفوقًا، بل لأن حبـي للقديس بولـس يحثني دائمًا على مطالعة كتاباتـه. المُحب هو أكثر معرفة بمحبوبه من سواه، لأنه يستأثر باهتمامه كما يتضّح من كلام القديس بولس إلى أهـل فيلبـي: "كما يحـق لي أن أفتكر هذا من جهة جميعكـم، لأني حافظكم في

(4) In Rom. Hom 32.

قلبي، في وثقي، وفي المحاماة عن الإنجيل وتثبيته ، أنتم الذين جميعكم شركائي في النعمة" (في ١ : ٧)

فإذا رأيتم أنتم أيضًا، أن تعيروا رسائله انتباهكم، فلا يُطلَب منكم أكثر من ذلك، لأن قول المسيح حق: "اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم" ! وبما أن لَدى الكثيرين منكم، أعباء تستأثر بوقتهم في تدبير شئون عائلاتهم وتربية بنيهم، فلا يستطيعون الانقطاع إلى تلك المهمة، فليبذل كل منهم جهده، محرّضًا من لهم متسع من الوقت على الإنكباب عليها. ثم اهتموا للإصغاء إلى شروحاته بقدر اهتمامكم بكسب كل أموال هذا العالم....]

+ العظات حول القديس بولس الرسول:

ألقى القديس يوحنا ذهبي الفم سبع عظات عن القديس بولس الرسول جميعها في أنطاكية ما بين سنة ٣٧٨ وسنة ٣٩٧م، أي حينما كان كاهنًا وقبل أن يصير أسقفًا للقسطنطينية.

وقد ظهرت هذه المجموعة منقولةً عن اللاتينية سنة ١٤٩٩م بعنوان De Laudibus Pauli في كتاب تضمّن أيضًا تفسيرًا لرسائل القديس بولس بقلم القديس أوغسطينوس.

ولم يظهر النص اليوناني الأصلي إلاّ منذ القرن السابع عشر، فقد اهتم السيّر هنري سافيل Sir Henry Savile في انجلترا والراهب اليسوعيّ فرونتون دو دوك Franton du Duc في فرنسا بنشر أعمال ق. يوحنا ذهبيّ الفمّ، ومن ضمنها هذه العظات السبعة.

ثم قام دون برنار دو مونفوكون Don Bernar de Monfaucon

مـا بـين ١٧١٨، ١٧٣٨م بنشـر أعمال ق. يوحنا ذهبيّ الفـمّ في ١٣ مجلدًا وجعل الترجمة اللاتينية مقابل النص اليوناني الأصلي.

وفي سنة ١٧٣٥م ظهرت هذه العظات مترجمة إلى الفرنسية في كتاب ضخم ضم أعمالاً لذهبيّ الفمّ، للأب Bonrecueil، ثم توالت الطبعات بعد ذلك.

وفي سـنة ١٩٨٢م ظهرت طبعة من السلسـلة المعروفة بـ "الينابيع المسـيحية Sources Chrétiennes" لـلأب Auguste Piedagnel تحمـل عنـوان Panegyriques de Saint Paul تحـت رقـم ٣٠٠، وفيها الأصـل اليـوناني محقَّقًا بدقّة مع ترجمة فرنسية دقيقة، وهي التي تمت هنا ترجمتها إلى العربية.

صورة القديس بولس في هذه العظات

١ - القديس بولس رجل المحبة:

في الطريق إذ كان شاول منطلقًا نحو دمشق يضطهد يسوع المسيح في أتباعه، التقى به السـيّد وناداه ليعلن له محبته على مسـتوى أبدي. هذا الإحساس الذي سـجله بعبارات كثيرة (أُنظر رو ٥: ٨، ١٠)، ولّد فيه طاقة حب نحو الله ظهرت في اتسـاع قلبه بالحب نحو البشرّية فنراه الكارز الملتهب بالمحبة أينما وُجد، فإن إلتقى باليهودي أعلن: "أقول الصـدق في المسيح، ولا أكذب، وضميري شاهد لي بالـروح القدس : إن لـيّ حزنًـا عظيمًا ووجعًا في قلبـي لا ينقطع. فإني كنت أود لو أكون أنا نفسـي محرومًا من المسـيح لأجل إخوتي أنسـبائي حسـب الجسد" (رو ٩: ١ - ٣) وإن إلتقى بالأمم يشـعر أنه رسـولهم، إذ يقول : "فإني أقول لكم أيها الأمم. بما أني رسول للأمم أمجد خدمتي..."(رو١١: ١٣) [عظة ٣: ٣]

لقـد كان يمتلـك طبيعة نارية، وقـد لاحظ ق. ذهبي الفم ذلك عندما أشـار في تعليقـه على رسـالة غلاطيـة إذ يقول "فبسـبب هذه الطبيعة الصـلبة، كان محتاجًا للجام قوي جدًا، لكي لا يرفض كلام الله له، ولهذا ردع الله هذه الحميّة الحمقـاء، وأخذ يهـدئ أمواج هذه الثورة المتأججة عنـده بجعله أعمى، وفي تلك اللحظة كلّمه، مُظهرًا له حكمته العالية وعلمه الفائق" [عظة ٤ : ٢]

لقد شـاء أن يقرّب العـالم كلّه لله. فانظروه يطوف أقطار الأرض، اليابسـة والبحر، وكل بقعة تحت الشـمس،كأنه ذو جناحين، ليستأصـل أشـواك الخطية باذرًا كلمة التقوى الحقيقية [عظة ١ : ٤].

لم يتسع قلبه لحب العالم. الأممي واليهودي – ككّل فقط وإنما كسيّده اهتم بالأشـخاص، على مسـتوى العلاقات الشخصـية، حتى وإن كان الشخص عَبدًا هاربًـا مثل أنسـيمس الذي يقول عنه لسـيّده فليمون: "أطلـب إليك لأجل ابني أنسـيمس الذي ولدته في قيودي .فاقبله، الذي هو أحشـائي...فاقبله نظيري" (فـل١٠، ١٢، ١٧) [عظـة ٣: ٨].

وإن كان لم يكتـفِ برعايـة الأمور الروحية، بل تخطاها إلى المسـائل الماديّة. فأظهر في هذه كما في تلك غَيرَة وعناية واضحة [عظة ٣: ٧، ٨].

وقـد تحـدّث ق. ذهبيّ الفـمّ عن محبة ق. بولس لله والتي كانت بالنسـبة له كالكنـز الذي لا يفنـى فقال: إنه بدون هذا الحب لا يتمنى أن يأخذ موضـعًا أيًا كان: لا بين القوات ولا بين السـلاطين بل على العكس مع هذا الحب يفضّـل أن يكـون بالأحـرى آخر الكل، بل بين مـن يُؤدبون ويتألمون، علـى ألاّ يُحرم من هذا الحب [عظة ٢ : ٤].

٢ - القديس بولس رجل آلام:

سجلّ لنا القديس بولس قائمة مختصرة بآلامه في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس (١١: ٢٣-٢٧)، وقد احتمل السجون والضربات والرَجْم والأسفار الطويلة وانكسار السفينة به، أخطارًا من بني جنسه وأخطارًا من الأمم، وأخطارًا في المدينة وأخطارًا في البريّة وأخطارًا في البحر، متاعب في الكنيسة من المبتدعين ومن محبّي الانقسام، في جوع وعطش، وفي أصوام مرارًا كثيرة، وقد امتاز ليس فقط بكثرة آلامه وإنما بما هو أهم. هو فهمه للألم من منظار مسيحي والذى يتلّخص في الآتي:

اعتبر الألم هو المناخ اللائق أو الدائرة التي في داخلها يلتقي المؤمن بمسيحه المتألم، ومن خلال شركة الآلام هذه ينعم بمعرفة القيامة وخبرة قوتها. بهذا المفهوم يقول القديس يوحنا ذهبيّ الفمّ: ما أمجد الآلام ! بها نتشّبه بموته![عظة ٢: ٣].

إن كنا نتألّم معه، إذن فالآلام هبة خاصة يقدّمها لمحبيه: "لأنه وقد وُهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضًا أن تتألموا لأجله" (في ١: ٢٩). وفي هذا يقول ذهبيّ الفمّ: [إنه يعلّمنا أن الآلام نعمة من أجل المسيح، وهبة من النعمة، فلا تخجل من عطيّة النعمة هذه، فهي أعجب من قوّة الإقامة من الأموات أو صنع المعجزات. فإنني إن فعلت هذه الأمور الأخيرة أكون مدينًا (للّه)، أما إن احتملت الآلام فيكون المسيح هو مدين لي لذلك يليق بنا ليس فقط ألاّ نخجل منها بل بالحري نفرح أنه قد صار لنا هذه النعمة[عظة ٢: ٢].

أنه حَسَبَ الآلام قوّة لتحقيق رسالة الإنجيل وليس عائقًا، إذ يقول: "أموري

قد آلت أكثر إلى تقدم الإنجيل، حتى أن وثقي صارت ظاهرة في المسيح" (في ١: ١٢). [عظة ٢: ٥]. فقد آلت وثقه إلى الكرازة بين رجال البلاط كما بين العسكر، وكانت سرّ سند للعاملين في كل موضع. حقًا إن الحياة المدلّلة والمترفة لا تقدر أن تكرز بالصليب كما تشهد حياة المتألّمين في الربّ بشكر. [عظة ١: ٨، ١٠].

٣ - القديس بولس رجل الغَيَرة والعزم:

يُظهره ق. ذهبيّ الفمّ أنه كان يشعر بالسلطان الذي وهبه الله إياه، هذا السلطان القائم على الدعوة الإلهية للكرازة، فكان يعمل بقوّة وغَيرَة متقّدة برجاء لا ينقطع وثقة في أنه يُنجح طريقه. كان هذا الإحساس متلازمًا مع اتضاعه، فالسلطان بالنسبة له ليس استعراض للسلطة وإنما عملاً قويًا للبنيان بروح الاتضاع، فحينما هُوجم في رسوليته التزم لا أن يدافع عن ذاته وإنما عن رسوليته لبنيانهم، وحسب نفسه وهو يفتخر كَمَنْ هو مختل العقل (اُنظر ٢كو ١٠: ٨، ١١: ٦) [عظة ٥: ١٢].

وحينما نراه يستخدم سلطانه الرسولي في التأديب، نراه لا يتعّجل بل ينذر مرّة ومرّات حتى يرد النفس إلى الله إن أمكن دون التأديب (اُنظر ٢كو ١٣: ١٠) [عظة ٣: ٥].

وكما يقول القديس يوحنا ذهبيّ الفمّ في موضع آخر على لسان القديس بولس: [أود أن تكون تهديداتي شديدة حتى تبقى كتهديدات ولا تتحول إلى عمل تأديبي. حتى في اعتذاره هذا يجعل كلماته أكثر رعبًا، مُظهرًا أنه لا يقوم هو بالتأديب بل الله نفسه، إذ يضيف: "حسب السلطان الذي أعطاني إياه

الرب". مرّة أخرى يظهر أنه لا يشتاق إلى استخدام سلطانه في تأديبهم بقوله: "للبنيان لا للهدم"][٥].

كان شعوره بالدعوة والتزامه بالعمل على مستوى مسكوني، مع إتساع قلبه بالحب الداخلي وغَيرَته المتقّدة نحو خلاص كل نفس قد ولدّ فيه إتساعًا في الفكر، وحكمة روحية، فصار قادر على التعامل مع اليهودى كما مع الأممي، يعرف كيف يكسب المنشقين ويلهب محبة الأصدقاء، يهتم بالرعاة مع الرعيّة، يسند الضعفاء وينمّي مواهب الأقوياء في الربّ، يلاطف العبيد ولا يتجاهل كرامة السادة... هذه الحكمة النابعة من الروح القدس العامل فيه خلال استعداده للبذل من أجل الكل. [عظة ٣: ٦]

لقد أراد ذهبيّ الفمّ أن يُظهر شجاعة الرسول من خلال حديثه عن رحلاته التبشيّرية. فهو منذ العظة الأولى تذكر بصيغة فيها مبالغة أن هذا الرسول: اجتاز كل الأقطار التي تحت الشمس. [عظة١: ٤]، وأبرز انتصارات خدمته الرسولية بصورة معبّرة فقال: إنه كما لو كان يسير في موكب انتصار محاطًا بأقواس النصر. [عظة ٢: ٣]. وحينما يذكر نشاطاته المتعددّة يقول: إنه سواء برسائله أو بحضوره.. بمواعظه أو بأعماله.. بتلاميذه أو بنفسه، كان يُقيم الساقطين، يثبّت القائمين، يُشجع المتوانين. [عظة ٣: ٦] مع أنه لم يمتلك أيًا من الكنوز التي يتباهى بها الناس: لم يكن له غنى أو قوة البلاغة.. [عظة٤: ١٠]. ونظر القديس يوحنا ذهبيّ الفمّ بإعجاب شديد إلى القديس بولس وهو على ظهر السفينة المتجهة إلى روما فقال: "وفي الحقيقة كان مدعوًا لموقعة هامة، لتبشير مدينة روما"[عظة ٧: ٩].

(5) 2 Cor. Hom. 30

ويوجد أيضًا نوع آخر من الغَيرَة والشجاعة لدى ق. بولس نالت إعجاب ق. ذهبيّ الفمّ ألا وهي شجاعته التي لا تقهر في وقت الاضطهادات، فقد كانت له نفس أقوى من الصخر وتفوق الحديد والماس صلابة [عظة١: ١٠، ١١، ١٢].

لقد كان ق. بولس من الرجال القادرين على تحويل مسار التاريخ واتجاهه، ومثل هؤلاء قلّما يجود بهم الزمان، فقبل أن يولد وترى عيناه النور دعاه الله دعوة خاصة: "قبلما صوّرتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدستك، جعلتك نبيًا للشعوب" (إر ١: ٥).

٤ - القديس بولس رجل الفرح:

لمس ق. ذهبيّ الفمّ الفرح الذي كانت تفيض به نفس ق. بولس وقلبه، كان الفرح ناجمًا عن سرعة انتشار الإنجيل، وعن عدد الناس الكبير الداخلين في المسيحية، إذ يقول: "شكرًا لله الذي يقودنا في موكب نصرته "(٢كو٢: ١٤) [عظة ٤: ٧].

فالإنسان الطبيعي يصعب عليه حينما يقع في الحزن أن يختبر الفرح بآن واحد . أمَّا الإنسان الروحي الذي اخترق الحاجز ما بين الجسد والروح وعاش بالروح، واستوطن في مسرّات السماء، وذاق الفرح الإلهي، فإنه يسهل عليه إن وقع في أحزان الجسد، أن يتحّصن في الرجاء بالسماويات فيتذوق ويختبر أمجد فترات العزاء والفرح السماوي وهو تحت ضغطة الآلام وثقل أحزان النفس.

لقد ذاق ق. بولس الفرح الروحي وهو تحت التعذيب، إن بالضرب أو الجَلْد أو الرَجْم وعن اختبار كان ينادي: "لأنكم رثيتم لقيودي أيضًا، وقبلتم سلب أموالكم بفرح" (عب١٠: ٣٤) [عظة ٤: ١٢].

وقـد ركّـز القديس يوحنا على إظهـار أن فرح ق. بولس يـزداد كلما ازدادت الشـدّة وعَظُم الألم ، لا لأن الموت سـيقوده إلى المشـاهدة الربانيّة، وإلى التمتّع برؤية المسـيح وحسـب، بل لأنه أيضًـا يشـارك المسـيح في آلامه. [عظة ٢ : ٢]. نعم كان ق. بولس يتهلّل بضربات السياط ويفتخر بقيوده [عظة ٦: ٨]. وعندما كان علـى ظهـر السـفينة التي حملتـه إلى روما مُقيـدًا بالسلاسـل، كان ممتلئًا فرحًـا كمـا لو كان ذاهبًا إلى أسـعد أقطار الأرض [عظـة ٧: ٩]، وحتى في روما نفسها قام بعض مناوئيه بالتبشير في روما لإثارة نيرون الذي كان يضطهده، ولم يهمـه هـذا الأمر بل قال: "سـواء كان بعلة أم بحق ينادي بالمسـيح" (في ١: ١٨) [عظة ٤: ١٥].

ختامًا، لقد كان بين الرسول بولس والقديس يوحنا ذهبيّ الفمّ نوع من التناغم والتوافق. هذا وذاك كانا مولعان بالصراحة، فأظهرا في حياتهما حزمًا وشجاعة عجيبّين، ينطلقان من محبة متقدّة لله، ومن انقياد كامل وفرح لنعمة الرب يسوع المسيح، في كل حال لم يطلب ق. ذهبيّ الفمّ إلاّ أن يكون خادمًا للمسيح، وكان أبدًا يردد: "المجد لله في كل شـئ" كما كان ق. بولس الرسـول يكتب، من سجنه، إلى أهل فيلبي قائلاً: "بل بكل مجاهرة كما في كل حين، كذلك الآن، يتعظّم المسـيح في جسدي، سواء كان بحياة أم بموت. لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح" (في ١: ٢٠ - ٢١).

العظـة الأولـى

القديس بولس يتفّوق على كافة القديسين

١ - يحق للإنسان بدون خِشْية من الإنخداع أن يرى في نفس القديس بولس بستانًا روحيًا ومروجًا للفضائل لوفرة بهائها بزهور النعمة، إذ كان دائمًا يهيىء أعماقه لتنمو النعمة[١] فيها وتزدهر فمنذ أن صار إناءً مختارًا، عاملاً على تنقية نفسه في كل يوم، تدفّقت فيه مواهب الروح القدس بغزارة عجيبة. وكان لنا من ذلك أن تفجّرت تلك الأنهار العجيبة، لا تلك الأربعة كما في الفردوس (أُنظر تك ٢: ١٠ - ١٤)، بل بفروع أوفر عددًا، تتدّفق كل يوم بلا انقطاع، لا لتروي الأرض، بل لتطفئ ظمأ النفوس وتجعلها قادرة على الإتيان بثمار الفضيلة. فأيّ لغة يمكنها أن ترتقي إلى مستوى هذه الفضائل العظيمة؟ وأيّ لسان يستطيع أن يبلغ إلى علو مجده؟

إنه وحده يجمع بأعلى درجة من الكمال كل أنواع الفضائل التي يمكن وجودها في البشر، بل في الملائكة أنفسهم. أجل أننا عاجزين عن أن نقوم بمديحه، ولكننا مع ذلك لا نرى مدعاة للصمت، بل أن ذلك دافعًا لنا على الكلام.

لأنه في الواقع إن قصورنا وعجزنا عن مديح هذا القديس هو أكثر بهاءً من ألف انتصار، ذلك لأن أسمى صيغ المديح جمالاً هو أن تُرى عظمة الفضائل فوق كل مجهود للبلاغة البشرّية.

٢ - فمن أي النواحي إذن أبدأ في هذا المديح؟ ومن أيها أتصدى للكلام إلاّ إذا بدأته من هذه النقطة أن كل أنواع فضائل البشر أجمعين يمكن أن

(١) يشير إلى نعمة المعمودية التي نالها في دمشق عقب اهتدائه إلى المسيحية (أع ٩: ١٧، ١٨، ٢٢: ١٦-).

نجدها مجتمعة فى شخص ق. بولس. أجل إن كل ما رأيناه في الأنبياء، والآباء، والصدّيقين، والرسل أو الشهداء في جميع العصور كان ق. بولس يجمعه كله في شخصه وبتفوّق لم يتسنَّ لأحد من أولئك الرجال أن يبلغه.

٣ - اُنظروا: إن هابيل قدّم ذبيحة (تك ٤: ٤) فكانت مدعاة لشهرته، ولكنكم إذا وضعتم ذبيحة ق. بولس، نجدها تفوّق تلك التى لهابيل بمقدار ما تعلو السماء عن الأرض.

وعن أيّ ذبيحة تريدون أن أتكلّم؟ إنها ذبائح كثيرة ويمكننا أن نختار منها ما نشاء. كل يوم كان يقدّم ذاته ذبيحة، وتلك الذبيحة كانت مزدوجة، إذا إنه كان يموت كل يوم (١كو١٥: ٣١)، وكان يحمل في جسده إماتة يسوع المسيح (٢كو٤: ١٠)

كان دائمًا يتواجه مع الأخطار بلا انقطاع، وتقبّل في قلبه موت الاستشهاد، مُخضعًا جسده إلى حد الموت، ولم يكن في ذلك إلاّ ذبيحة مقدّمة للرب بثبات عزم، بل كان أكثر من ذلك . فهو لم يكن يقدّم حملانًا وثيرانًا بل كان يقدّم كل يوم ذاته ذبيحة مضاعفة، ولذلك حملته الجرأة على القول: "فإني أنا الآن أسكب سكيبًا" (٢تي ٤: ٦) مشيرًا باللفظة "سكيب" إلى دمه.

٤ - لم يكتف بهذه الذبائح، فبعد أن قدّم ذاته بأجود سخاء وشرف، شاء أن يقدّم العالم كله لله. فاُنظروه يطوف أقطار الأرض، اليابسة والبحر، كأنه ذو جناحين يتعّهد مدينة اليونان كما يتعّهد البرابرة، وكل بقعةٍ تقع تحت الشمس، لا ليمارس جولانًا لا خير فيه، بل ليستأصل أشواك الخطية. باذرًا كلمة التقوى الحقيقية، طاردًا أمامه الضلال والكذب، ومحوّلاً البشر إلى ملائكة[٧]، بل أكثر

(٧) غاية الخدمة هى أن تتحوّل حياة البشر واهتماماتهم من الأمور الأرضية إلى الإشتياقات السمائية.

من ذلك محوّلاً البشر الذين كانوا في قبضة الشيطان إلى طبيعةٍ ملائكيةٍ. ولهذا عندما حانت ساعة انطلاقه من هذا العالم، بعد هذه المشقّات الكثيرة، وبعد هذه الانتصارات المتعاقبة عزّى تلاميذه بقوله: "لكنني وإن كنت أنسكب أيضًا على ذبيحة إيمانكم وخدمته،أُسرّ وأفرح معكم أجمعين، وبهذا عَينِه كونوا أنتم مسرورين أيضًا وافرحوا معي" (في ٢: ١٧ - ١٨).

هل من ذبيحة توازي هذه الذبيحة العظيمة التي قدّمها ق. بولس، مُقدمًا إيّاها قربانًا بسيف الروح (أف ٦: ١٧)، وعلى مذبح يعلو إلى ما فوق السماوات؟ حقًا إن هابيل قُتل بيد قايين (تك ٤: ٨)، وهذا يُحسب له مجدًا. ولكنني عدّدت لكم مِيتات لا تُعَدّ تَعَذّب الرسول فيها بمقدار ما قضى من أيام في الكرازة بالإنجيل. وإن أردت أن تعلم شيئًا أيضًا عن الميتة التي ختم بها حياته، فأنا عند إرادتكم: إن هابيل قُتِلَ بيد أخيه بلا سبب، ولم يجِنْ قايين أيّة منفعة من ذلك، وأمّا ق. بولس فقد قُتِلَ بيد من أنقذهم مرارًا من كل شرّ، والذين من أجلهم احتمل كل أنواع العذاب.

٥ - كان نوح رجلاً بارًا كاملاً في وسط جيله ولم يوجد من يماثله (تك ٦: ٩، ٧: ١) أمّا ق. بولس فكان بالحق فريدًا. الأول نجا بنفسه وبأبنائه دون سواهم (تك ٦: ١٨، ٧: ٧، ٨: ١٦، ١٨)، أمّا هذا فحين غمر العالم طوفان أشد هولاً، امتد فوق العالم بأسره مُنتشلاً إيّاه من طغيان الأمواج، عِوَضْ اثنين أو ثلاثة، أو خمسة من أقاربه، لا بفُلك صنعته يداه بل بكتابة رسائله. ففُلكه (رسائله) لم تكن لتذهب وتجئ في مكان واحد، لقد بلغت أقاصي المسكونة، ومنذ ذلك العهد، وفي عهدنا هذا أيضًا، يقدّم ملجأ لكل الذين يريدون الخلاص. لقد بنى هذا الملجأ ذلك المهندس العلاّمة بحيث يكون من السعة ليحمل البشريّة كلها،

ومنهـم مَنْ قد يكون أحيانًـا أقل تعقلاً من الحيوانات فيجعل منهم بدخولهم فيه أشباه ملائكة، ولهذا يتفوّق فُلكه جدًا على أول فُلك صُنع. فهذا الفُلك فيما أوىّ اسـتقبل غرابًا، وحينما أطلقه طار منه، لقد آوىّ ذئبًا ولكنه لم يسـتطع أن يُغيّر شـيئًا من طبيعته الضـارية، ولم تكن تلك حال فُلك ق. بولس، فقد حوّل الذئاب حملانًا، والصقور والبواشق والغربان إلى حمائم وديعة، وأنزل دعّة الروح الإلهي مكان الشهوات القتّالة التي كانت تملأ قلوب البشر. وإلى يومنا هذا لا يزال فُلكه يحتفظ بكل قوته المنيعة فلم تسـتطع عواصف الشر أن تزعزع ألواحه الخشبية، بـل تغلّبت على كل العواصـف وأعادت الهـدوء، ولا عجب في ذلك لأن ألواحه لم تُدهنَ بزفتٍ وقارٍ، بل بنعمة الروح القدس.

٦ - إبراهيم أيضًـا كان محل إعجاب الجميع لأنه ما إن قيل له: "اذهب من أرضـك ومن عشـيرتك" (تك ١٢: ١) حتى تَرَكَ بيته ووطنه وأصدقاءه وعشيرته مفضّلاً طاعة الله . لأن أمر الله كان كل شئ بالنسبة إليه. ولكن أي سلوك يمكنه أن يعادل سـلوك القديس بولس؟ الـذي لم يفارق فقط وطنه، وأقاربه، وبيته، بل ترك العالم كله. ماذا أقول؟ بل ترك السـماء وسـماء السماوات، وكل شئ لكي لا يملك إلاّ المسـيح. ولم يطلب إلاّ أمرًا واحدًا: محبة يسـوع. اسـمعوه يعلن محبته بهـذه الكلمـات: "لا أمور حاضـرة ولا مسـتقبلة، ولا علو، ولا عمـق، ولا خليقة أخرى، تقدر أن تفصلنا عن محبة المسيح" (رو ٨: ٣٨، ٣٩).

تقـول إن إبراهيـم ألقـى بنفسـه في المخاطـر لإنقـاذ ابـن أخيـه مـن يد الغربـاء (تـك ١٤: ١٢ - ١٦)، أمَّا ق. بولـس فلم يقف هَمُّه عند إنقاذ ابن أخيه فحسـب، ولا ثـلاث أو خمس مدن فقط، بل امتدّ هَمّـه إلى العالم كله ينقذهُ، لا مـن أيـدي البرابرة، بل من أيدى الشـيطان نفسـه، محتملاً كل يوم ألف شِـدّة،

وبالميتـات التي كابدها محققًا لغَيره طمأنينة الحياة. تقول أجمل أعمال إبراهيم وذروة حكمتـه أنـه قدّم ابنه ذبيحة. ومن هـذه الجهة نجد ق. بولس في الطليعة: لأنه لم يقدّم ابنه للذبح بل قدّم نفسه، وكم مرّة قدّمها؟ لقد سبق الكلام عن ذلك مـرارًا ومـرارًا كمـا قلت.

٧ - كذلـك يُعجـب النـاس من إسـحق إذ أنـه يتحلّى بالعديد من الفضـائل ولاسـيما التسـامح. فإنه بعد أن حفر آبارًا له (تك ٢٦: ١٥ - ٢٢)، ارتضـى أن يُطرد من الأرض التي كانت ملكًا له، واحتمل هذا دون أن ينتقم لنفسه، بل عندما رأى آباره تُردم احتمل ذلك بصبر باحثًا عن مكان آخر يلتجئ إليه. وعوض من أن يواجه الذين يضايقونه، قَبِلَ التخلّي عن كل ما ملكت يداه حتى يشبع عدوه رغبته فـي الظلم. أمَّا ق. بولس فلم يشـاهد الحجارة تـردم الآبار التي كان حفرها، بل شـاهد جسده يُرجم بالحجارة، ولم يرتضِ فقط أن يستسلم للظلم، كما استسلم إسـحق بـل بذل الجهد ليرفع إلى السـماء جميع الذين رجمـوه. إنه كينبوع كلما قصدوا رَدْمُه ازداد فيضانًا وتدّفق في العالم أنهارًا.

٨ - ويعرض لنا الكتاب المقدس أيضًا مثالاً عجيبًا للصبر، يعقوب أحد الآباء الأوّلـين وهو ابن إسـحق كنموذج لقـوة الاحتمال (تـك ٣٢: ٢٨). ولكن أين نجد نفسًـا من الماس جديرة بأن تعادل صـبر ق. بولس؟ إنه لم يكن عبدًا أربع عشـرة سنة (تك ٢٩: ١٥ - ٣٠). بل أوقف حياته كلها عبدًا لخدمة عروس المسيح. ولم يقف عذابه عند حرَ النهار وبرد الليل فقط، بل تجاوز ذلك إلى تجارب لا تحصى فمـن جَلْـد (أع ١٦: ١٩ ٤٠-، ٢كو١١: ٢٤) إلى رَجْـم (أع ١٤: ١٩، ٢كو١١: ٢٥)، بل إلى مصـارعة الوحوش أحيانًا (١كـو١٥: ٣٢)، وأخطار البحر (٢كو١١: ٢٦)، وشـدائد وأصـوام متواصلة لم تكن تدع له وقتاً للراحة لا في النهار ولا في الليل.

ومع ذلك ترونه ينقض على الأعداء ليخلّص الحملان من بين أنياب الشيطان.

٩ - ويوسف ألم يكن عفيفًا (تك ٣٩: ٧ - ٢٠)؟ أخشى أن أكون سخيفًا إذا حاولت أن أُشيدَ بالقديس بولس في هذا الموضوع، فهو إذ صَلَبَ نفسه عن العالم (غل ٦: ١٤) فقد احتقر لا جمال الجسد البشري فقط، بل شتى مفاتن الدنيا بقدر ما نحن نزدرى بالغبار والرماد. لم يهتز لشيء فكان كالجسد المائت تجاه جيفة باردة. لقد أخمد فيه شهوات الجسد، ودفع عنه كل ما يغري الطبيعة حتى عاد لا يطرق قلبه أى تأثير بشرّي.

١٠ - وأيوب؟ ألم يستحوذ على إعجاب جميع البشر؟ إن ذلك حق لاشك فيه فإنه قد صار بطلاً عظيمًا جديرًا بأن نُشبهه بالقديس بولس سواء في صبره أو طهارة حياته أو في الشهادة التي شهد له بها الله نفسه. لأن جهاده كان عجيبًا مدهشًا، وأعجب منه الانتصار الذي ختم به ذلك الجهاد. لكن ق. بولس لم يكن جهاده هكذا لبضعة أشهر فحسب بل سنوات طويلة. إنه لم يستعمل قطعة من الخزف لحك بدنه، ولم يجلس على الرّماد (أي٢: ٨)، بل كان دائماً يندفع فى فم الأسد، ويصارع في مواجهة تجارب بلا عدد كأقوى وأرسخ من صخرة لا تتقلقل، ولم يتلقَّ ملامةَ أو شتائم من ثلاثة أو أربعة أصدقاء، بل من جميع أعداء الإيمان مُضافًا إليهم الإخوة الكذبة. فقد كان دائمًا هدف للعنات والإهانات.

١١ - كان أيوب مضيافًا، وشديد العطف على الفقراء. وهذا الأمر لا يُنكر، ولكن سرعان ما يتصاغر هذا أمام القديس بولس، كما يتصاغر الجسد أمام النفس: فأيوب كان يبذل أقصى عناية في سبيل ذوي الأمراض الجسدية، وأمّا ق. بولس فَبذَلَ أوفر العناية بأكرم سخاء أيضًا في سبيل مرضى النفوس. مُنهضًا من كان عقله معتلاً، وكاسيًا برداء الحكمة السماوية ذوي العري الأخلاقي، حتى أنه

كان في الجانب المادي متفوقًا على أيوب. لأن من يقوم بمساعدة البؤساء، وهو يتألم من الفاقة والجوع، ويكون أسخى وأكثر كرمًا ممّن يمدّهم من وفرة ما عنده. إن بيت أيوب كان مفتوحًا لجميع الغرباء، ونفس ق. بولس كانت مفتوحة للعالم أجمع، وتستقبل بكل الحب جميع الشعوب، لهذا كان يقول: "لستم متضيّقين فينا بل متضيّقين في أحشائكم" (٢كو ٦: ١٢).

الأول كان يتصّدق على المعوزين ولديه قطعانًا كثيرة من الغنم والثيران، وأمَّا ق. بولس فلم يكن يمتلك سوى جسده الذي استخدمه في خدمة المحتاجين، وهو يصرّح بهذه الحقيقة قائلاً: "حاجاتي وحاجات الذين معي خدمتها هاتان اليدان" (أع٢٠: ٣٤). فعمله الشخصي كان ينبوع فيض لكل أصحاب الحاجات.

١٢ – ومع ذلك ألم تكن الآلام والدُّود سبب آلام شديدة لا تطاق؟ نعم، إني أقرُّ بذلك، لكنكم إذا تأملتم في آلام ق. بولس مدى سنين قاسى خلالها كثيرًا من الجوع، والعُري، والقيود، والسجن، والمكايد والفخاخ المنصوبة من مواطنيه، والغرباء، والطغاة، وبالاختصار العالم كله. وفضلاً عن ذلك ما قاسى من الضيقات الأشد عنفًا، أعني آلام الروح التى أصابته من أجل الساقطين، واهتمامه بجميع الكنائس (٢كو١١: ٢٩)، نجد أن تلك النفس التي تحمّلت هذه المِحَن كانت أشد صلابة من الصخر والحديد والماس. فما كان أيوب يعانيه في جسده، كان ق. بولس يعانيه في روحه، والهمّ الذي كان يحمله بسبب كل من كانوا عاثرين كان أقسى عليه مما كان يفعله الدُّود، ولهذا لم تنقطع الدموع التي كانت عينا ق. بولس تذرفها ليلاً ونهارًا. وبأوجاع أشد من أوجاع المرأة التي تلد، لأجل كلّ المؤمنين (رو ٩: ٣)، اسمعوه يقول: "ياأولادي الذين أتمخض بكم إلى أن يتصّور المسيح فيكم" (غلا ٤: ١٩).

١٣ - وبعد، فأي اسم يُذكر بعد اسم أيوب يحملنا على الإعجاب؟ لاشك في أنّه موسى! ولكنه يتوارى أمام فضيلة ق. بولس. فموسى هذه النفس العظيمة التى تلألأت بجميع أنوار الفضائل والمزايا العالية، حتى لتتعالى فوق كيانها حين ترغب - لأجل خلاص اليهود- في أن تُمحى من السِفْر الإلهي (خر ٣٢ :٣٢).

لقد توّسل موسى إلى الله أن يَهلَك مع بقيّة الشعب، أمَّا ق. بولس فقد أراد لا أن يشاطرهم حظ شقائهم بل أن يتحملّه مكانهم، وأن يخسر نصيبه من المجد الأبدي غاية أن يُقبلوا هم فيه. ذلك كان يحارب فرعون وهذا لم ينقطع عن قتال الشيطان. الأول كافح في سبيل شعب واحد والثاني كافح في سبيل كل شعوب العالم، يسقي الأرض في كل إتجاه لا بعرقه، بل بدمه وهو يحمل الإنجيل إلى القفار كأنه يحمله إلى أسعد أقطار العالم. يحمله لا إلى العالم اليوناني فقط، بل إلى عالم الأمم أيضًا.

١٤ - من الممكن أن أتكلّم عن يشوع وصموئيل وسائر الأنبياء الآخرين، ولكن تجنبًا لإطالة هذا الحديث نتوقّف عند من يحتلّ ق. بولس بينهم المرتبة الأولى، فعندما يظهر تفوّق ق. بولس على هؤلاء يزول الدَّاعي إلى التوقّف عند غيرهم. فَمَنَ هم هؤلاء الأقطاب، ومَنْ نذكر بعد الذين قدّمناهم غير داود، وإيليا ويوحنا؟! وهذين الآخيرين كان أحداهما نذيرًا لمجئ الرب الأول كما سيكون الآخر السابق لمجيئه الثاني، ولهذا السبب يشتركان في الاسم الواحد (ملا ٣: ١). ما أبرع ما اتصف به داود؟ بلاشك بتواضعه البالغ وبحبه لله (مز ٥٠، ٢صم ١٢: ١٣). ولكن مَنْ ياترى تفوّق على القديس بولس في ممارسة هاتين الفضيلتين أو بالقدْر نفسه؟ وما الذي يُتعجب منه في إيليا؟ أهو لأنه أغلق السماوات وجلب الجوع وأنزل النار من السماء؟ أنا لا أعتقد ذلك، ولكن لأنه كان يغار للربّ بحماسة

أشـد التهابًـا مـن النار (اُنظر ١مـل ١٩: ١٠). ولكنكم إذا تأملّتـم غَيرَة ق. بولس ترونه متفوّقًا في ذلك على إيليا بقدر ما تفوّق إيليا على بقيّة الأنبياء. فأي شـئ يعـادل هـذا القول الذي كان يمليه عليه حبه لمجـد الله: "فإني كنت أود لو أكون أنا نفسـي محرومًا من المسيح لأجل إخوتي أنسبائي حسب الجسد" (رو ٩: ٣). ولهذا إذا كانت السـماوات في متناوله مع أكاليلها ومكافآتها، ارتضـى أن يتراجع إلى هـذه الحيـاة فقـال في ذلـك: "ولكن أن أبقى في الجسـد ألزم مـن أجلكم" (في ١: ٢٤)، وهكـذا فـلا العـالم المنظـور نفسـه ولا غـير المنظـور، كافيـان، لإظهار غَيرَته وحبه فأراد أن يتصوّر عالمًا آخر لا وجود له لُيظهر مدى اشتياقاته ورغباته (رو٨: ٣٩).

كان يوحنا يقتات من الجراد والعسل البرّي (مت ٣: ٤)، غير أن القديس بولس كان يعيش بين الناس كما كان يوحنا يعيش في البرية، لقد كانت مائدته أبلغ دلالة على البساطة والزهد. لقد كان مُستغرقًا ومُنهمكًا في التبشير بالإنجيل. وإن كان يوحنا قد أظهر شجاعة ورباطة جأش في مقاومة هيرودس، فالقديس بولس أيضًا - قـاوم نظير يوحنا- وبحماسـته لا فم واحد، أو اثنـين، أو ثلاثة، بل أفواه عدد كبير من الطغاة وهم كهيرودس في القسوة بل أشد منه طغيانًا وسوءًا.

١٥ - بقـى أن نقـارن ق. بولـس بالملائكة. إذن فلنترك الأرض، ونصـعد إلى أبـواب السـماء. ولا يتهّمنا أحد بالجسـارة في ما نقول، فالكتـاب المقدس يدعو يوحنـا مـلاكًا (مت ١١: ١٠، مر١: ٢)، ويدعو الكهنـة كذلك (ملا ٢: ٧). أفيكون موضـع دهشـة إذا قارنا أسمى جميع البشـر بهذه القوات السماوية؟ فيم سبب عظمـة الملائكة؟ أليس فـى طاعتها لأوامر الله؟ تلك هي الشـهادة التي يقدّمها داود في حـق هذه القـوات بعاطفة التعجب: "يا ملائكته المقتدرين قوة. الفاعلين

أمره" (مز ١٠٣: ٢٠) ما من صلاح يعادل هذا الصلاح في تلك الأرواح الطاهرة. فالذي يجعلهم طوباويين فوق كل شئ هو أنهم يخضعون لوصايا الله وأوامره، وأنها لا تعصاه أبدًا. فهذه الطاعة التزم بها ق. بولس هو أيضًا بكل دقة، ولم يرضى أن يتّمم كلمة الله ووصاياه وحسب بل ما هو أكثر، كما يعلن هو ذلك بقوله: "فما هو أجري؟ إذ وأنا أبشر أجعل إنجيل المسيح بلا نفقة" (١كو ٩: ١٨). وأي مديح غير هذا يَخُص به النبي الملائكة؟ "الصانع ملائكته رياحًا، وخدامه نارًا ملتهبة" (مز ١٠٤: ٤).

فالقديس بولس يقدّم لكم المشهد عينه. فهو كنار وريح جال الأرض كلها ونقَّاها حين أنه لم يكن بعد قد امتلك السماء، وفي ذلك كل العجب من كونه وهو لا يزال حيًا في هذا العالم ولابسًا هذا الجسد الفاني، قد ماثل القوّات السماوية التي لا جسد لها.

١٦ - أي عقاب نحن لسنا أهلاً له إذا لم نجاهد قدر المستطاع متمثلين بهذا الرجل الذي جمع في ذاته جميع هذه الفضائل؟ فلنفكر مليًا في هذه الأمور حتى نكون بلا لوم. ولنبذل قصارى جهدنا لنبلغ ما بلغه ق. بولس من الغَيرَة، لكي نحصل نحن أيضًا على الصلاح الذي ناله، بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقوة الآن وإلى دهر الدهور. آمين.

العظة الثانية

القديس بولس المثل الأعلى للفضيلة

محبّته للمسيح

١ - مَنْ هو الإنسان؟ وما شرف طبيعته، وإلى أي درجة من الفضيلة يستطيع أن يتسامى هذا الكائن الحي؟ لقد ظهر هذا جليًا في ق. بولس أكثر من جميع البشر. فمنذ ظهوره وإلى يومنا هذا، لا يزال واقفًا ههنا، مُدافعًا عن سيدّه بصوته المدوي أمام أولئك الذين يوجهون إليه اللوم لكونه خَلَقَنا على ما نحن عليه، حاثًا على الفضيلة، مُغلقًا أفواه المجدّفين الوقحة، ومُوضّحًا لهم أنه لا يوجد فرق كبير ما بين البشر والملائكة، إن أحببنا أن نكون ساهرين على أنفسنا.

القديس بولس لم يكن يمتلك طبيعة أخرى غير طبيعتنا، ولم تكن نفسه تختلف عن أنفسنا، ولم يسكن عالمًا آخر غير عالمنا. بل نشأ في أرض كأرضنا وبلاد كبلادنا، وتربى تحت نفس الأنظمة والعادات. لكنه فاق جميع البشر منذ أن عُرف البشر على الأرض. إين إذن أولئك القائلون إن الفضيلة صعبة والرذيلة سهلة؟ إن ق. بولس يردهم بقوله: "لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديًا"(٢كو ٤: ١٧). فإن كان الضيق الذي يذكره خفيفًا، فكم بالأحرى جدًا تكون ملذات الحياة الطبيعية أكثر خفة وأقل شأنًا.

٢ - والعجيب في الأمر ، ليس فقط عدم اهتمامه بالأتعاب التي يجوزها طلبًا للفضيلة من فرط غَيرَته، بل في عدم سعيه إلى الفضيلة من أجل المكافأة. أمَّا نحن فرغم أن المكافأة قائمة أمام أعيننا، فنحن لا نتحّمل المشّقة لأجل الحصول عليها.

أمَّا ق. بولس فكان على العكس من ذلك، كان يحب الفضيلة في ذاتها، دون

أن يفكر في المكافأة أو العوائق التي تعترضها في الظاهر، لأنه بوثبة واحدة كان يتخطّاها بمنتهى السهولة. وما كان يومًا ليتعلّل بضعف الجسد، ولا بالانهماك في المشغوليات، ولا بطغيان الطبيعة، ولا بأي شئ آخر. لاشك أنه كان مثقّلاً باهتمامات كثيرة تفوق كل مهام القادة وجميع ملوك العالم، ومع ذلك يتّربع على قمة القداسة كل الأيام. وعندما ازدادت المخاطر حوله كان يتقدّم إليها بحرارة وغَيرَة فائقة، وكان يفسر ذلك بقوله: "أنسى ما هو وراء وامتد إلى ما هو قدام" (في ٣: ١٣). وإن كان ينتظر الموت، كان يدعو الجميع للمشاركة في هذه الفرحة بقوله: "كونوا أنتم مسرورين أيضًا وافرحوا معي" (في ٢: ١٨)، وعندما كانت الأخطار والإهانات والشتائم تكتنفه، كان يتهلّل مسرورًا ويكتب إلى أهل كورنثوس: "لذلك أسرُّ بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات" (٢كو١٢: ١٠).

٣ - هذه الضيقات دعاها "أسلحة البر" (أُنظر ٢كو ٦: ٧) دلالة على أنه كان يجني منها أهم الثمار، ولهذا لم ينجح أعداؤه في التغلّب عليه بأي وسيلة. فهو في كل مكان يُهان ويُجلد ويُساء إليه، ومع هذا كان يسير كما لو كان في موكب انتصار، محاطًا بأقواس النصر، شاكرًا الله قائلاً: "شكرًا لله الذي يقودنا في موكب نصرته" (٢كو٢: ١٤). لقد كان يسعى وراء العار والشتيمة لأجل الكرازة بالإنجيل أكثر مما نسعى نحن وراء الكرامة، ويشتهي الموت أكثر مما نشتهي الحياة، وينشد الفقر أكثر مما ننشد الغنى، وليس هذا فحسب بل أكثر وأكثر، يسعى إلى الضيق أيضًا أكثر من الفرح، وإلى الصلاة لأجل أعدائه أكثر من ما يطيب لنا الدعاء عليهم. فشتّان ما بين أشواقه وأشواقنا! إنه يقلب موازين الأشياء، أو بالأحرى نحن الذين قلبناها، أمَّا هو فحفظ الترتيب كما وضعه الله

الخالـق. هذا الترتيب الذى لا نتمسـك به فـى مواقفنا. فرغباته تتمّشـى على قوانـين الطبيعـة بخـلاف رغباتنا ونزعاتنـا. ولكن كيف يمكـن التأكد من هذا؟ الجواب هو أنه بالرغم من أنه كان بشـرًا، كان يسـعى بل يركض نحو الضـيقات أكثر بكثير من سعيه نحو المسرّات.

٤ - الشـئ الوحيد الذي كان يُروعّه فيهرب منه هو أن يُحزن الله، ولا شـئ آخر. بل على العكس من ذلك كان مبتغاه الوحيد في ما يرضى الله، وعندما أقول مبتغاه لا أقصـد فقط ما كان يبغى من خيرات هذا العالم وحسـب، بل خيرات العالم الآتي أيضًا.

فـلا تكلّمنـي عن المـدن، أو الشـعوب، أو الملـوك، أو الجيوشـ، أو الثروات، أو الحكام، فهذه كلها فانيات لم يعتبرها ولا كنسيج العنكبوت! لكنه على العكس إذ وضـع أمامه الخيرات السـماوية ترى حرارة حبه للمسيح. فهذا الرجل المقيّد بهذه المحبة لم يسـتهوه مجد الملائكة، ولا رؤسـاء الملائكة، ولا أي شـئ من هذا القبيل، إذ كان يحوي في داخله أعظم ما يمكن للإنسان امتلاكه، أي حبّ المسيح. وبهذا الحب اعتبر نفسـه أسـعد من كل البشـر كافة، وبدون هذا الحب لم يكن يرغب أن يكون له موضـع لا بين السـيادات أو الرئاسـات أو القوات. ولكنه، مع هذا الحب يفضّل أن يكون بالأحرى آخر الكل، بل بين من يُؤدبون ويتألّمون (اُنظر ٢كو٦: ٩)، على أن يُحرم من هذا الحب ويكون بين العظماء وأرباب المناصب.

٥ - فالحرمـان مـن ذلـك الحب هو العقـاب الوحيد في نظـره، هو الجحيم نفسـه، هو الشـدائد التي لا تطاق. علـى خلاف ذلك فإن إقتناء محبة المسـيح هي الحياة، هي العالم بأسـره، هي نصيب الملائكة، هي الحاضر، هي المستقبل، هـي الملكـوت، هي تمـام الوعود، هـي نبع الخير، أمَّـا الأمور التـي لا تؤول إلى

هـذه الغايـة فهـو لا يجد فيها أى شـيء آخر سـواء كان مُبهجًـا أو مُؤلمًا، بل أنه لا يأبه لكل ما هو مادي وكأنه ورقة من العشـب اليابس، فالطغاة والأشـرار فى نظره مثل الحشـرات، والشـعوب المضـطرمة غضـبًا كالهوام، والموت والعذابات وكل أنـواع العقوبـات المبرحـة مادام يكابدها مـن أجل المسـيح، فإنما هي كلهو الأطفال. صارت كل هذه التجارب والضيقات محبوبة لديه، إنه يفتخر بالسلاسل (أع ٢٠: ٢٢، ٢٣، فـل ١: ١٣) التـي تُكَبِل يديه أكثر مما لو وُضـع على هامته تاج نـيرون. كان يعيشـ في سـجنه كما لو كان في السـماء، وكان يتلّـذذ بالجراحات والجلـدات بفرح يفوق أولئك الذين يتهافتون على المكافآت. ويرتضـي المشـقات والتعب ارتضـاؤه للمكافأة، ولذلك كان يعتبر الشـدائد خير جائزة له. وهو لهذا كان يدعوها نعمة وهبة (اُنظر في ١: ٢٩).

٦ - تأمّل جيدًا تجد أن جائزته الوحيدة هي أن ينطلق من هذا العالم ليكون مع المسـيح، أمَّا البقاء في الجسـد فكان هو الجهاد بعينه (اُنظر في ١: ٢٣، ٢٤)، ومع ذلك فضّـل الحالة الثانية لأنها في نظره أشـد لزومًا، أمَّا أن يكون محرومًا، منفصـلاً عن المسـيح، فهذا هو الشـقاء عينه، بينما أن يكون مع المسـيح، فهذا هو خير ما تتوق إليه نفسـه، ومع ذلك فقد فضّـل الاختيار الأول لأجل المسـيح (رو ٩: ٣). وأنا أيضًا أقول إن كل الأمور التي قد تكون سبب غمّ وحزن لنا، كانت هي نفسـها سـبب مسـرّة عظيمة له. ولكن فيم الكلام عن الأخطار والشـدائد الأخرى؟ إن ق. بولس كان في همّ متواصل وهذا ما نراه حينما يقول: "من يضعف وأنـا لا أضـعف؟ من يعثر وأنـا لا ألتهب؟" (٢كو١١: ٢٩). قـد يقول قائل إن في الهـمّ متعـة، فنحن نرى أن كثيرين ممّن فقدوا أبناءهم، إذ تُركوا وشـأنهم يبكون كيفما يشـاءوا، يكون في ذلك بعض التعزيّة لهم، لكن على خلاف ذلك إذا مُنعوا

اشتد ألمهم وحزنهم. ولما كان ق. بولس يبكى ليل نهار كان لابد أن يجد تعزيّته (أع ٢٠: ٣١)، لقد كان حزن ق. بولس على آلام الآخرين أكثر من حزنه وبكاءه على آلامه الشخصية. بماذا تُقدّر ذلك الحزن الذي يعتصر قلبه عندما يتفكّر في هلاك اليهود الذين كان يتوق إلى خلاصهم حتى لو كان في سبيل ذلك يُحرم من المجد السماوي؟ (أُنظر رو٩: ٣). بكل تأكيد أن مجرد تخيّل هلاكهم كان يؤلمه ألمًا شديدًا وإلاّ لما تمنى ذلك التمنّي. فمثل هذا الاختيار كان أخف ثقلاً عليه وأحب إليه من هلاك قومه، وما كان يتألّم فحسب، بل كان يصرخ قائلاً: "إن لي حزنًا عظيمًا ووجعًا في قلبي لا ينقطع"(رو٩: ٢).

٧ – ذاك الذي كان يئّن كل يوم، إذا جاز التعبير، بدون تمييز، يتوجّع من أجل المسكونة، من أجل كل جنس ومدينة، من أجل كل إنسان بلا استثناء. بأي شئ يمكن أن نشبّهه؟ أبالحديد أم بالماس؟ وماذا نقول عن نفس كهذه؟ أَمِنَ الذهب صيغت أم من الماس؟ أنها لأكثر صلابة من الماس وأغلى ثمنًا من الذهب والأحجار الكريمة. فبأي شئ نشبهها إذن؟ إني لا أجد من الموجودات ما يمكننا أن نقارنها به؟ لو أمكن أن يُسبك الذهب ألماسًا والألماس ذهبًا، لوجدنا لتلك النفس تشبيهًا أكثر مقاربة. ولكن ما لي والتشبيه بالذهب والماس؟

ضع العالم كله في كفة ميزان، وفي الكفة الأخرى نفس ق. بولس، فسوف ترون أن نفسه هي الراجحة! وإن كان قد تكلّم وهو يمدح الذين طافوا في جلود مِعزَي وغنم عائشين في براري ومغائر (عب ١١: ٣٧، ٣٨)، قائلاً عنهم: "إن العالم لم يكن مستحقًا لهم" فما أجدرنا نحن بأن نقول عنه إنه لا شئ من الأشياء يعادله، وإذا كان العالم لا يوازيه فمن يوازيه؟ هل السماء؟ هي نفسها غير كافية. لأنه إذ كان قد فضّل محبة معلّمه على السماء وعلى كل ما في السماوات فكم يكون

بالأولى السـيّد الذي يفوقه صلاحًا بقدر ما يفوق الصلاح على الشر... أن يؤثر هذا المعلّم بولس على جميع ما في السماوات. الله لا يقيس حبّه على محبتنا، بل يحبنا حبًّا جمًّا لا يستطيع الكلام أن يُعبَر عنه.

٨ - فانظـر مـا أعظم تلـك النِعَم التي أُعتبر ق. بولـس جديرًا بها حتى قبل القيامة العتيدة. لقد أُختطف إلى الفردوس، وصـعد إلى السـماء الثالثة، وتمتع بالشـركة في أمـور تفوق الوصـف لا يُنطق بهـا، ولا يحلّ لإنسـان أن يتكلّم عنها (٢كـو١٢: ٢ - ٤). وفي حياتـه، وإن كان يطـأ الأرض، كان يسـلك كمن تصـحبه الملائكة. فيما كان مقيدًا بقيود الجسـد المائت، إلاّ أنه كان مُتحلّيًا بنقاوتهم. وإن كان تحـت ثقل التجـارب العظيمة فإنه جاهد ليصـير كهذه القوات السـماوية. وبالحـق فهو جـاب كل أرجاء الأرض كما لو كان طائـر ذي جناحين، واحتقر كل الألقـاب والأخطار كما لو كائنًا بلا جسـد، وبكل الخيرات الأرضـيّة كما لو كان قد حصـل على ميراث السـماء، وكان على الدوام متيقّظًا وكأنه يعيش بين هذه القوّات التي لا جسد لها.

إن مهمة الملائكة كانت خدمة البشـر، لكن ليس أحد منهم دبّر الشـعب الذي وُكَل إليـه أمـره كما فعل القديس بولس للمسـكونة كلها. ولا تقل لي أن ق. بولس لم يدبّر شـؤونهم بنفسـه. هب ما تقوله صـدقًا. ولكن إذا لم يقم بها كلها بذاته فلا يحق لنا أن ننقص من شرفه وفخره، فقد كان أهلاً للمديح الموجّه إليه، لأنه اسـتحق أن يُعطَى هذه النعمة العظيمة. كانت رسـالة ميخائيل (رئيس الملائكة) هـى الاهتمام باليهود (دا ١٠: ١٣، ٢١، ١٢: ١)، أمّا ق. بولس فعلى البر والبحر، بل على الأرض كلها المسكونة منها وغير المسكونة.

٩ - إن كنـت أتكلّـم هكـذا عن ق. بولس فلا أقول ذلك لكـي أُقلّل من كرامة

الملائكة- حاشا لله! لكن لأبيّن كيف يمكن للإنسان أن يتمتّع بصحبتهم بل ويتشّبه بهم. لماذا لم يُكلَّف الملائكة بهذه الخدمة؟

حتى لا يكون لك عذر إذا توانيت، ولا تتحجج باختلاف الطبيعة فَتعَمد إلى الراحة. لأن الفرق عظيم. إذ كيف لا يكون أمرًا خارقًا وفوق الطبيعة أن كلمة ينطقها لسان ترابي تطرد الموت (أع ٢٠: ٩-١٢)، وتكسر قيود الخطية، وتشفي رجلاً مقعدًا (أع ١٤: ٨-١٠)، وتجعل الأرض سماء؟ لذلك أنا أتحيّر من قدرة الله، وأقف منذهلاً أمام غَيرَة ق. بولس، لأنه نال مثل هذه النعمة، وأهّل نفسه جيدًا لها.

١٠ - إني أرجوكم ألاّ تكتفوا بالإعجاب، بل أن تقتدوا بهذا النموذج الأصيل للفضيلة. وبهذه الطريقة نستحق أن نشاركه أكاليل المجد التي استحقها. وإذا أخذك العجب عندما تسمعني أقول إن عشت بهذا الكمال تنال نفس المكافأة. فاسمعه يقول لك بلسانه: "قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملّت السعي، حفظت الإيمان. وأخيرًا قد وُضع لي إكليل البر الذي يهبه لي في ذلك اليوم الربّ الدّيان العادل وليس لي فقط، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضًا" (٢تي ٤: ٧، ٨). أرأيت، إنه يدعو الجميع إلى نفس الشركة، فإذا كانت المكافأة نفسها في متناول الجميع، فلنجتهد كلنا لنصير مستحقين للخيرات العتيدة التي وعدنا بها الربّ. ولا ننظر فقط إلى كِبر وعِظم أفعاله الجليلة، بل ننظر أيضًا إلى شدة الغَيرَة التي أهلّته لنوال تلك النعمة العظيمة، ولا يغيب عنا أنه مماثل لنا في الطبيعة وقد شاركنا في كل الأمور. وهكذا تصبح الفضائل التي تبدو مستحيلة الإقتناء، سهلة وهيّنة، وبعد أن نقضي هذا الزمان القصير نبلغ إلى تلك الحياة التي لا فيها عجز ولا موت. بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقوة الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

العظة الثالثة

محبة القديس بولس للبشر

١ - طوبى للقديس بولس، فلقد أظهر إلى أي حدّ تكون قوى الغَيرَة عند الإنسان. لقد تمكّن من أن يطير إلى السماوات، ويرتفع فوق الملائكة، ورؤساء الملائكة، وجميع القوات السماوية، فهو يدعونا للإقتداء بيسوع المسيح على مَثَاله هو قائلاً: "كونوا متمثلين بي كما أنا أيضًا بالمسيح" (١كو١١: ١) ومرّة أخرى لا يذكر نفسه، فيَعمُد إلى أن يرفعنا إلى قرب الله إذ يقول: "فكونوا متمثلين بالله كأولاد أحباء" (أف ٥: ١)، ثم يضيف إلى هذا الكلام ما يبيّن أنه لا شئ يجعلنا على مقربة من ذلك المَثَال الإلهي، إلاّ أن نكون نافعين لغيرنا ونهتم جدّ الاهتمام بما ينفع إخوتنا، فيقول على إثر كلامه: "اسلكوا في المحبة" (أف ٥: ٢) ثم يبدأ في الكلام على المحبة إذ هي الفضيلة التي تقرّبنا إلى الله أكثر من سواها. فمهما كانت الفضائل الأخرى فهي تُحسب تالية للمحبة.

وفي الحقيقة إن الفضائل الأخرى تنحصر كغيرها فى المستوى البشري، كمقاومة الشهوة الجسدية، ومحاربتنا للشراهة، والميل إلى الجشع، والجهاد ضد الغضب. أمَّا المحبة فهي مشتركة بين الله وبيننا. لهذا قال ربّ المجد: "صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات" (مت٥: ٤٤ - ٤٥).

٢ - وإذا كان القديس بولس على يقين من أن المحبة هي أصل لكل الفضائل، انطلق بكل قواه يقدّم البرهان، فمن الثابت أن لا أحد أحب أعداءه كما أحبهم ق. بولس، ولا أحد شابهه في الذي قدّمه لمن تعمدّوا الإساءة إليه، ولا أحد تألّم من

أجل مضطهديه كما تألّم هو، ولكن بدلاً من أن ينظر آلامه لم يكن يرى إلاّ الصلة الطبيعية التي تربطه بمواطنيه، وبمقدار ما كانت شراستهم تشدّد عليه الخناق، كان يزداد رأفة بهم ويرثي لما هم عليه من حماقة، كمثل أب رأى ابنه شاردًا باندفاع مجنون- فغلبه التأثر شفقة على حاله، فذرف الدموع بغزارة - هكذا الرسول العظيم كان يقيس ثورة المسيئين إليه بمقياس شدة أهوائهم فيعطف عليهم بحنو كبير ويبذل لهم كل عناية وخير.

٣ - اسمعوه، مثلاً بأيّة عذوبة، وبأي شفقة يحدّثنا عن أولئك الذين جلدوه خمس مرات (٢كو١١: ٢٤)، والذين رجموه (أع ١٤: ١٩، ٢كو١١: ٢٥)، والذين قيدّوه بسلاسل وكانوا متعطشين إلى دمه ويرغبون كل يوم في تمزيقه إربًا إربًا فيقول: "لإني أشهد لهم أن لهم غَيرَة لله، ولكن ليس حسب المعرفة" (رو١٠: ٢). أمَّا المؤمنين الذين يناصبونه العداء فيوّبخهم قائلاً: "لا تستكبر بل خف! لأنه إن كان الله لم يشفق على الأغصان الطبيعية فلعله لايشفق عليك أيضًا" (رو١١: ٢٠، ٢١). وإذا كان يعلم أن الله حكم عليهم، كان يعمل ما بوسعه أن يعمله. فهو يتحّسر لحالتهم، ويتوّجع، ويوّبخ الذين يهينونهم لعثرتهم وسقوطهم ويجتهد ما أمكن أن يجد لهم ظِلّ عذر. وإذ كان لا يجد سبيلاً إلى إقناعهم بالكلام لصلابة قلوبهم وقسوتها، كان يلجأ إلى الصلاة كما يقول: "أيها الإخوة، إن مسرّة قلبي وطلبتي إلى الله لأجل إسرائيل هي للخلاص"(رو١٠: ١)، ثم يعقد عليهم آمالاً طيبة إذ يقول لهم عوض أن يموتوا في يأسهم أن "هبات الله ودعوته هي بلا ندامة" (رو١١: ٢٩).

كل هذه الكلمات تدّل على أنه مهتم غاية الاهتمام بخلاصهم، ويشتاق إليه اشتياقًا ملتهبًا. فيقول: "سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب"

(إشـ ٥٩: ٢٠، رو١١: ٢٦). وحينمـا يـزداد الغـم المتغلغل فيه نظـرًا لجحودهم وعنادهم، كان يجتهد أن يجد لنفسـه أسـاليب مختلفة للتخفيف من وطأة آلامه، فيقول مرّة: "سـيخرج من صـهيون المنقذ ويرّد الفجور عن يعقوب" ومرّة أخرى يقول: "هكذا هؤلاء أيضًـا الآن، لم يطيعوا لكي يُرحموا هم أيضًـا برحمتكم" (رو١١: ٣١).

٤ - هكـذا كان النبـي إرميا مجتهـدًا في محاولة الدفاع عـن الخطاة، فتارة يقـول: "وإن تكـن آثامنا تشـهد علينا يـارب، فأعمل لأجل اسـمك" (إر١٤: ٧). وأيضـاً يقول: "ليس للإنسـان طريقه. ليس لإنسـان يمشـي أن يهدي خطواته" (إر١٠: ٢٣)، ونقرأ أيضًـا في موضـع آخر: "أننا تراب نحن" (مز١٠٣: ١٤). هذه في الواقـع عادة الذين يتوّسـلون لأجل الخطاة، فحتى ولو لم يكن لِمَنْ يتشـفّع له أمرًا صالحًا يقولونه فى حقهم، يبحثون عن أى ظلّ لعذر لهم حتى وإن كان ليس صـحيحًا، لأن ذلـك يُحسـب نوعًا من العزاء للنائحين على عنـاد الخطاة. إذاً لا تفحص الكلام حرفيًا، لكن ضع فى ذهنك أنها كلمات تصدر عن نفس مُرَّة تسعى أن تجد فرصة لإنقاذ الخطاة، وحكمًا عادلاً لحسابهم.

٥ - هل كان القديس بولس يكتفي بأن يُظهر شفقته على اليهود دون الوثنيين؟ لا، إنـه كان ذا رقـة ولطـف لا حد لهما، من جهة الأقربـاء كما من جهة الغرباء. اسـمع ما يقول لتيموثاوس: "وعبد الرب لا يجب أن يخاصـم، بل يكون مترفقًا بالجميع، صالحًا للتعليم، صبورًا على المشقّات، مُؤدبًا بالوداعة المقاومين، عسى أن يعطيهـم الله توبـة لمعرفـة الحق، فيسـتفيقوا من فخ إبليس إذ قد اقتنصـهم لإرادته" (٢تي٢: ٢٤ - ٢٦).

هل تريد أن تسـمع أيضًـا ما يقوله للخطاة؟ اسـمع ما يقوله في رسـالته إلى

أهـل كورنثوس: "لأني أخاف إذا جئـت أن لا أجدكم كما أريـد" (٢كو١٢: ٢٠)، وحالاً بعد ذلك يقول أخاف: "أن يذلني إلهي عندكم، إذا جئت أيضًـا وأنوح على كثيريـن من الذين أخطأوا من قبل ولم يتوبوا عن النجاسـة والزنا والعهارة التي فعلوهـا" (٢كـو١٢: ٢١). وعندما يكتب إلى أهل غلاطية يقول: "ياأولادي الذين أتمخض بكم أيضًـا إلى أن يتصوَّر المسيح فيكم" (غلا٤: ١٩). واسمعوا ما يقول في شأن الزاني الكورنثي وكيف يجزع لحالته ويقول: "أطلب أن تمكنّوا له المحبة" (٢كو٢: ٨). ولما فصـله من شـركة المؤمنين لم يفعل ذلك إلاّ بدموع كثيرة، وقال: "لأني مـن حـزن كثير وكآبـة قلب كتبت إليكـم بدموع كثيرة، لا لكـي تحزنوا، بل لكي تعرفوا المحبة التي عندي ولاسيما من نحوكم" (٢كو٢: ٤). وقوله في موضع آخر: "فصـرت لليهودي كيهودي لأربح اليهـود وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس. صـرت للضـعفاء كضعيف لأربح الضعفاء. صـرت للكل كل شـئ لأخلص على كل حال قومًا" (١كو٩: ٢٠، ٢٢). وفي موضـع آخر: "لكي نُحضر كل إنسان كاملاً في المسيح يسوع" (كو١: ٢٨).

٦ - هـل رأيتـم هـذه النفس المرتفعة علـى كل الأرض؟ لقد كان يشـتاق لو يجعـل كل إنسـان كامـلاً، ويقـدّم الجميع للمسـيح، وقد فعل في ذلـك ما أمكنه فعلـه كأنـه أب لـكل العالم. لقـد كان يهتم ويسـعى ويبذل جهـده لإدخال جميع الناس إلى الملكوت السـماوي، مُلاطفًا البعض، مُحرّضًـا البعض الآخر، مُصـلّيًا مُتوسـلاً، واعدًا، باعثًا الرعب في الشـياطين، طاردًا مفسدي النفوس، بحضوره أو برسـائله، بمواعظه أو بأعماله، بتلاميذه أو بنفسـه، مُقيمًا للسـاقطين، مُثبّتًا للقائمين، مُشجّعًا للمتوانين، مُعتنيًا بمن كانوا في الضيق، باعثًا الذعر بتهديداته لأعـداء الإيمـان، أو مُرعبًا لهم بنظراته الثاقبة، كأنه أشـبه بقائد حربى، يحمى

المقدمة والميمنة، والميسرة، والمعدات، وكل قائد مئة، وكل جندي، وكل حارس حتى لتعم عنايته الجيش كله.

٧ - ولم يكتف برعاية الأمور الروحية، بل تخطّاها إلى المسائل الماديّة. فأظهر في هذه كما في تلك غَيرَة وعناية واضحة. اسمعه مثلاً يقول، وهو يكتب إلى شعب بكامله، ويتوسط لامرأة وحيدة: "أوصي إليكم بأختنا فيبي، التي هي خادمة الكنيسة التى فى كنخريا، كي تقبلوها في الرب كما يحق للقديسين، وتقوموا لها في أي شئ احتاجته منكم" (رو١٦: ١، ٢)، وأيضًا: "أنتم تعرفون بيت استفانوس... وقد رتبوا أنفسهم لخدمة القديسين، كي تخضعوا أنتم أيضًا لمثل هؤلاء" (١كو ١٦: ١٥، ١٦)، وأيضًا: "فاعرفوا مثل هؤلاء" (١كو١٦: ١٨).

والخلاصة أن تلك عادة القديسين أن لا يهملوا في صداقتهم لبعض الناس، أن يؤدوا إليهم مثل هذه المعونات. وهكذا فعل أليشع أيضًا من جهة المرأة التي قبلته في بيتها، فهو لم يكتف فقط بالإعانة الروحية للمرأة، بل اهتم بمساعدتها في الحاجات المادية دالاً بذلك على عرفانه لإحسانها. فأمر غلامه بأن يقول لها من قبله: "هل لك ما يُتكلّم به إلى الملك أو إلى رئيس الجيش" (٢مل ٤: ١٣).

٨ - ولماذا تتعجب من أن القديس بولس يتقدّم بهذه التوصيات في رسائله، وهو الذي يدعو الناس إليه، فلم يحسب هذا خارج دائرة مسئولياته أن يهتم بنفقات سفرهم ويذكرها للمؤمنين في رسالة؟ ففي رسالته إلى تيطس يقول: "جهز زيناس الناموس وأبلوس باجتهاد للسفر حتى لا يعوزهما شئ" (تي٣: ١٣). فإذا كان يهتم بسفرهما مثل هذا الاهتمام، فكم يكون مدى اهتمامه لو حدث أن رآهما في خطر. اُنظروا حينما كتب إلى فليمون، بأي إلحاح واهتمام عن أنسيمس، وكيف أن رسالته مملوءة باللياقة وحافلة بالعطف والحنان. هذا

الذي لم يستنكف من أن يكتب رسالة كاملة من أجل عبد سلب سيّده وهرب. كم كانت نفسه عظيمة ومملوءة محبة للآخرين. الشئ الوحيد الذي كان يعتقده مُخجلاً له هو أن يتوانى في أدنى شئ له صلة بخلاص الناس، حتى أنه لم يمسك عنهم وصاياه، ولا ماله، ولا شخصه ذاته، إذ كان هو ذلك الرجل الذي اندفع مرارًا إلى أن يموت، لم يكن يبخل بمقتنياته عنهم - هذا إن كان له مقتنيات- ولم القول: "إن كانت له مقتنيات"، لأنه لم يوفر المال ولم يحرز منه شيئًا. ولا تظنوا أن في هذا الكلام لغزًا، بل اسمعوه هو نفسه يقول: "أمَّا أنا فبكل سرور أُنفِق وأُنفَق لأجل أنفسكم" (٢كو١٢: ١٥)، وعندما خاطب أهل أفسس قال: "أنتم تعلمون أن حاجاتي وحاجات الذين معي خدمتها هاتان اليدان" (أع ٢٠: ٣٤).

٩ - هذا الرجل العظيم الملتهب بنار المحبة التي هي أسمى الفضائل، كان له قلب أشد من أيّة شعلة نار. وكما أن الحديد إذا أُلقي في النار ينصهر فيصير الكل نارًا ملتهبة، هكذا ق. بولس المشتعل بنار المحبة قد صار كله محبة. وكما لو كان أبًا للبشر جميعًا في غير استثناء، لقد نافست محبته محبة الأباء بالجسد، أو بالأحرى فاقهم جميعاً، في الاهتمام بحاجات الناس الروحية والماديّة. باذلاً كل ماله وكلماته وشخصه وحياته ذاتها في سبيلهم. ومختصر القول أقول: إنه بذلها في سبيل الناس أجمعين لأنه أحبهم ولذلك كان يدعو المحبة "كمال الناموس" (رو١٣: ٨، ١٠)، "رباط الكمال" (كو٣: ١٤)، وأم البركات وأول كل الفضائل وغايتها. فمما قاله في وصفها: "أمَّا غاية الوصية فهي المحبة من قلب طاهر، وضمير صالح" (١تي ١: ٥). ويقول أيضًا: "لأن لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تشته، وإن كانت وصية أخرى هي مجموعة في هذه الكلمة تحب قريبك كنفسك" (رو١٣: ٩).

١٠ - فبما أن المحبة هي أول الفضائل وغايتها، كان علينا أن نقتدي بالقديس بولس في هذه الفضيلة، لأنها هي التي أوصلته إلى ما كان عليه. لا تحدثوني عن الأموات الذين أحياهم (أع ٢٠: ٩، ١٢)، ولا البرّص الذين أبرأهم (أع ١٩: ١١، ١٢): إن الله لا يطلب منكم هذه الأعمال وإنما اقتنوا المحبة، محبة ق. بولس فتنالوا إكليلاً كاملاً. مَنْ الذي يؤكد ذلك؟ يؤكده هذا الذي نمّى في نفسه المحبة، الذي فضلّها على صنع الآيات والعجائب وعلى كل ما سواها. إنه يعرف فاعليتها لقد صنعت منه ما كان عليه. إن المحبة هي التي رفعته إلى قمة الكمال وجعلته أهلاً لمحبة الله له. لهذا كان يقول: "جدوا للمواهب الحسنى. وأيضًا أريكم طريقًا أفضل" (١كو١٢: ٣١)، مُشيرًا إلى المحبة، أجمل الطرق وأيسرها. فلنسير إذن في هذا الطريق غير متوانين، إلى أن نرى ق. بولس، ومعلّم ق. بولس، وننال أكاليل لم تمسها يد. بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح، الذي له المجد والقوة، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

العظة الرابعة

دعوة القديس بولس - معجزة انتشار الإنجيل

١ - القديس بولس الطوباوي الذي بسببه نحن اليوم مجتمعون، والذي أنار المسكونة، هذا الرجل كان قد فقد بصره حين دُعيّ قديمًا، ولكن فقدانه للبصر صيّره نورًا للعالم. إن الله قد أحسن إليه حين حرمه من البصر بسبب قصر نظره السابق، لكي حينما يستعيد البصر تعود إليه في ذات الوقت البصيرة أيضًا. مُظهرًا له من هذه المعجزة عظمة قدرته، مُوضّحًا له مستقبله سلفًا، بما يحمله من آلام، ومُخبرًا إيّاه كيف يتهيأ للكرازة بالإنجيل، وكيف يجب أن يتبعه، وهو مغمَض العينين. ولكي يشرح ق. بولس هذا الأمر بدقة قال: "إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر، فليصر جاهلاً لكي يصير حكيمًا" (١كو٣: ١٨). لأنه ما كان يمكن تجديد بصيرته، إن لم يفقد بصره أولاً. وما لم يتخل عن أسلوب تفكيره الذى كان مصدرًا للقلق، لكي يسلّم نفسه تمامًا للإيمان.

٢ - لا أريد أن يظن أحد عندما يسمعني أتكلّم هكذا، أن الدعوة كانت عن إكراه، لا، لأنه كان يمكنه أن يعود إلى وضعه السابق. كثيرون - في العهد القديم والجديد- رأوا بدون شك آيات أخرى مثيرة للدهشة أكثر من ذلك، وبالرغم مما رأوه رجعوا إلى الوراء. هكذا فعل يهوذا، ونبوخذ نصر، وعليم الساحر، وسيمون، وحنانيا، وسفيرة، وكافة الشعب اليهودي (أع ٨: ٩ - ٢٤، ٥: ١ - ١١). ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للقديس بولس، فهو على العكس منذ ثبّت بصره نحو النور الصافي، واصل طريقه، وطار نحو السماء. وإن تساءلت لماذا صار أعمى. فاسمع ما يقوله هو بنفسه: "فإنكم سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية، أني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها. وكنت أتقدّم في الديانة اليهودية على كثيرين

من أترابي في جنسي، إذ كنت أَوْفر غَيرَة في تقليدات آبائي" (غلا ١: ١٣ - ١٤). فبسبب هذه الطبيعة العنيفة الصلبة، كان مُحتاجًا للجام قويّ جدًا، لكي لا يرفض كلام الله له، ولهذا ردع الله هذه الحماسة الزائدة، وأخذ يهدئ أمواج هذه الثورة المتأججة مُستخدمًا العمى كوسيلة، وفي تلك اللحظة كلّمه، مُظهرًا له حكمته العالية وعلمه الفائق، فقد كان يريد أيضًا أن يدرك مَنْ هو الذي يضطهده، وإنه لا يستطيع احتمال رؤيته فقط سواء عامله بالحسنى أو بالعقوبة.

٣ - ستقولون: ولماذا لم يَصُر هذا الحدث منذ البداية؟ لا تسأل مثل هذا السؤال، ولا تكن فضوليًا، لكن دع للعناية الإلهية أمر اختيار الوقت المناسب. وهذا ما قاله القديس بولس عن نفسه: "لكن لما سرّ الله الذي أفرزني من بطن أمي، ودعاني بنعمته، أن يعلن ابنه فيّ..." (غلا١: ١٥، ١٦). وبما أن ق. بولس تكلّم هكذا فلا حاجة بعد من جانبك لمثل هذا السؤال. ففي تلك الساعة، نعم في تلك الساعة كانت الدعوة مفيدة للقديس بولس، بعدما أزيلت أحجار العثرة من طريقه. ولنأخذ من هذا المثَال درسًا، ونعلم أن لا أحد من الذين سبقوه، ولا هو نفسه وجد المسيح بقوّته الذاتية، ولكن المسيح هو الذي ظهر له شخصيًا، وقد قال : "ليس أنتم اخترتموني بل أنا الذي اخترتكم" (يو ١٥: ١٦). لماذا لم يؤمن ق. بولس وقد رأى أمواتًا يقومون بقوّة اسم المسيح؟ ولماذا لم يتعظ حينما رأى المُقعد من بطن أمه يمشي (أع ٣: ١ - ١١)، والشياطين يهربون، والمفلوجين يُشفون (اُنظر أع ٨: ٧). وكان على معرفة بهذا كله، إذ كان يتحَرى أعمال الرسل بتدقيق، وأيضًا عندما رُجم استفانوس كان هو هناك، ورأى وجهه شبيهًا بوجه ملاك (اُنظر أع ٦: ١٥)، ومع هذا لم يجن أية منفعة. ولماذا ذلك؟ لأنه لم يكن قد تلقى الدعوة بعد.

٤ – وأنت، إذا سمعت هذا الكلام، فلا ينبغي أن ترى أي إكراه في هذه الدعوة، لأن الله لا يُكره أحدًا، بل على خلاف ذلك، يدعنا أسياد قراراتنا، حتى بعد دعوته لنا. وهكذا أظهر نفسه لليهود، وفي الوقت المناسب، ولكنهم رفضوا قبوله، لأنهم كانوا يطلبون المجد الذي يأتي من الناس. ولو قال غير المؤمن : كيف يمكنني التأكد من أن ق. بولس تلقى دعوة من السماء وتُرِكَتْ له في ذات الوقت الحرية لقبول الدعوة؟ ولماذا لم أتلق أنا دعوة مماثلة. نقول له: قل لي بصراحة، أيها الصديق: هل تؤمن حقًا أنه تلقى دعوة؟ حسنًا، إن كنت تؤمن بذلك، كان إيمانك به، علامة كافية لك، ولكن إذا كنت لا تؤمن بأنه دُعي من السماء، فلماذا تسأل عن دعوتك أنت؟ فآمن إذًا، لأن الله دعاك أنت أيضًا من السماء، والمطلوب أن تكون لك نفس مستعدة حسنًا، وأمّا إن عاندت بحماقة ورجعت عن الطريق المستقيم، فحتى لو أتاك صوتًا من السماء فلن يكفي هذا لخلاصك.

٥ – كم من مرّة سمع اليهود صوتًا آتيًا لهم من السماء ولم يؤمنوا به! كم معجزة شاهدوها في العهد الجديد كما في القديم دون أن يتعظوا! بل على العكس أن هؤلاء الناس في العهد القديم بعد معجزات هذا عددها، صنعوا لهم عجلاً من ذهب، بينما نجد أن راحاب زانية أريحا أظهرت إيمانًا يثير الإعجاب أمام جواسيسهم، ولم تكن قد شاهدت بعد شيئًا من تلك المعجزات (يش ٢ : ١ – ٢٤، ٦ : ٧، يع ٢ : ٢٥). وحتى وَهُمْ في أرض الميعاد وبالرغم من المعجزات التي تمتّ أمامهم ظلوا أقسى من الحجارة، أما أهل نينوى فكان يكفيهم رؤية يونان ليؤمنوا ويتوبوا، وبذلك أوقفوا غضب السماء عليهم (مت ١٢ : ٤، لو١١ : ٢٩، ٣٠، ٣٢). وفي العهد الجديد عندما كان المسيح بينهم، رآه اللص الذي على الصليب فآمن به، أمَّا اليهود الذين رأوه في وسطهم يقيم الموتى، أوثقوه وصلبوه (لو٢٣ : ٢٤).

٦ - وفي أيامنا هذه؟ ألم تنقض النار المنبعثة من أعماق هيكل أورشليم على من يقومون ببنائه، وعاقتهم عن محاولتهم الأثيمة[٨]؟ ومع هذا لم يتوبوا، أو يتخلّوا عن قساوتهم وعنادهم. وكم من معجزات أخرى جرت بعد هذا الحدث دون أن يجني معاصروها أيّة فائدة! وعلى سبيل المثال، الصاعقة التي سقطت على سطح هيكل أبولون، عندما اضطر وسيط هذا الشيطان إمبراطور ذلك الزمان، أن ينقل رفات أحد الشهداء بعيدًا عن الهيكل مُدعيًا أنه لا يستطيع أن ينطق ويسمع صوت الشيطان طالما أن رفات الشهيد قريبة منه[٩] وفعلاً هذه الرفات كانت موجودة بالقرب منه. ثم بعد هذا الحريق أقدم عم الامبراطور على تدنيس الأواني المقدسة للكنيسة فمات والدود ينهشه، وأقدم الأمين على الخزينة الإمبراطورية أيضًا على انتهاك حرّمة الكنيسة فمات منشقًا من وسطه. وما الفائدة من ذكر المجاعة التي كانت في جميع نواحي الأرض وتحت حكم ذلك الإمبراطور والتي أصابت المدن كلها في نفس الوقت، بل مقتل الإمبراطور على يد الفرس، وخبل عقله قبل موته، وسقوط الجيش وسط البربر كما لو في شبكة أو مصيدة، ثم عودته الغريبة العجيبة؟ وما إن سقط هذا الإمبراطور الجاحد، وخلفه آخر يتصف بالتقوى حتى توقفت في الحال تلك الأحداث الأليمة، وعاد الجنود الذين كانوا محاصرين لا يجدون لهم مخرجًا، عادوا بإذن الله محرّرين من قبضة البرابرة في سلام وأمان. ألاّ تكفي مثل هذه الأحداث أي إنسان لكي تردعه عن عدم الإيمان، وتعيده إلى التقوى.

---

(٨) كان ذلك سنة ٣٦٢م عندما دعا يوليانس الجاحد اليهود إلى إعادة بناء هيكل أورشليم لنقض نبوة السيد المسيح من جهة هيكل أورشليم، وأن يقوموا ببنائه مرّة أخرى، وقد حدث زلزال شديد أتى على جميع مدن فلسطين، وانطلقت من الأرض شهب نار قضت على عمّال البناء.

(٩) رفات الشهيد بابيلاس.

٧ - ولكن أليس الحاضر مثيرًا للدهشة أكثر؟ ألم يُعلن الصليب والكل يهرعون إليه؟ ألم يُعلن عن الميتة الشنيعة ومع هذا الكل يندفعون نحوه؟ ألم يُصلب على مرأى ومسمع من آلاف الناس؟ ألم يُصلب لصان بجانب المسيح نفسه؟ ألم يوجد كثير من الحكماء؟ ألم يوجد آنذاك كثير من العظماء؟ هل رأينا أحدًا منهم يعلو اسمه إلى هذا الحد؟ ولماذا نذكر الحكماء والعظماء؟ ألم يوجد آنذاك مشهورين؟ هل وُجد بينهم من سيطر على العالم في وقت قصير؟ لا تذكر لي الهراطقة من كل نوع وصنف، فالكل ينادون بمسيح واحد، وإن لم يكن نداء الجميع مخلصًا، فالكل يعبدون ذاك الذي صُلب في فلسطين، على عهد بيلاطس البنطي. أليس من شأن هذه الأحداث أن تُظهر قوته بصورة أكثر وضوحًا من ذلك الصوت الذي أتى من السماء؟ لماذا كان سلطان كل الملوك دون سلطان المسيح وانتصاره، بالرغم من آلاف المعوقات؟ الملوك خاضوا الحرب عليه، والطغاة أشعلوا نيران الاضطهاد، وشعوب بأكملها انتفضت ضده، ومع هذا لم يفلحوا في الحط من ديانتنا بل على العكس فديانتنا لم تنحصر، فقولوا لي من أين تأتي مثل هذه القوة العظيمة؟

٨ - يقولون إن المسيح كان ساحرًا! حسنًا! كان الساحر الوحيد الذي يتصرف هكذا! لاشك أنكم سمعتم أنه يوجد في الهند وبلاد فارس كثير من السَّحرة، ولا يزال يوجد سَّحرة كثيرون، لكن اسمهم لا يعرفه أحد. لكن قد يقال أن تيانس[١٠] الدجّال المشعوذ قد حاز نجاحًا منقطع النظير. أين ومتى؟ في ناحية صغيرة من العالم، ولوقت قصير، وانطفأ بهاؤه سريعًا، ومات دون أن يترك وراءه، لا كنيسة،

---

(١٠) كان أبولونيوس تيانس من كبادوكية من أتباع الفلسفة الفيثاغورية، وصادف في منتصف القرن الأول شهرة شعبية في الشرق وفي روما، ونعته بعض الأقدمين بالشعوذة.

ولا مؤمنين، ولا أي شئ من ذلك. ولماذا نتكلّم عن السَّحرة والدّجّالين السابقين؟ ماذا جرى بعبادة الآلهة حتى انقطعت تمامًا، تلك التي كانت لدودون وكلاروس[11] ولكل لهذه الطقوس الشيطانية حتى صمتت وأُبكمت؟

٩ - لماذا ترتجف الشياطين ليس فقط أمام المصلوب، بل أيضًا أمام من ذُبِحُوا لأجله؟ لماذا يهربون بسرعة بمجرد أن يسمعوا ذكر الصليب؟ أفضل لهم أن يهزأوا به، فهل كان الصليب في حقيقته شئ بهي ومبهج؟ لا على خلاف ذلك، إنه شئ مخز وشائن، أنه عقوبة المُدان، بل أسوأ أنواع العقوبات للأثمة، لعنة عند اليهود، وجهالة لدى اليونانيين. فمن أين تتأتي هذه الرهبة؟ أليس بسبب قوّة المصلوب؟ فلو كانوا يخافونه لذاته لكان الأمر غير لائق. فضلاً عن هذا فإن كثيرًا من الناس قَبْلَ المسيح وبعده، صُلبوا، واثنين إلى جانبه. حسنًا! فلو قيل: "باسم اللص المصلوب، أو باسم هذا أو ذاك من المصلوبين" هل يهرب الشيطان؟ إطلاقًا، بل سيأخذ في الضحك. لكن لو عكستَ الأمر وأضفت إلى الصليب اسم يسوع الناصري، لَفَرَّت الشياطين كما يُفرّ من أمام النار. ما جوابك؟ كيف انتصر؟ هل بتضليله الجماهير؟ إن وصاياه لا تدل على مثل هذا. وفضلاً عن ذلك فالمضلّلون معروفون في كل مكان وزمان. هل لكونه ساحرًا؟ لكن تعليمه لا يشهد بذلك، وكثيرًا ما امتلأ العالم بالسَّحرة. هل لكونه حكيمًا؟ وما أكثر ما كان في العالم من حكماء؟ فمن يكون هذا الذي أحرز انتصارًا مثل هذا الانتصار؟ لا أحد، حتى ولو شيئًا قليلاً من ذلك.

١٠ - فمن المؤكد أن ذلك لم يكن لكونه ساحرًا أو مُضللاً، كما أشاعوا عليه، بل على العكس لأنه سعى إلى تقويم أولئك الناس ولامتلاكه قوّة إلهية

(١١) كان في دودون هيكل لزفس قرب غابة سنديان يرى الناس في حفيف أوراق شجرها آيات علوية، وكانت كلاروس في إيونيا هيكلاً شهيرًا لأبولون.

لا تقهـر، نعـم، لأجل هذا سـاد على الكلّ، وأوحى إلى صـانع الخيـام هذا بقوّة تشهد الأحداث بعظمتها. فهذا الإنسان الذي يشارك في الحياة العامة، ويمارس صـناعة الخيام، صـار مقتدرًا جدًا إلى الدرجة التي بها اقتاد الرومان، الفرس، والهنود، والسـكيثيين، والإثيوبيين، والماديين، والعيلاميين إلى الحق، وباختصار، كل الجنس البشـري، في أقل من ثلاثين سـنة، فقل لي، من أين أتى لهذا الإنسان الذي اعتاد على السـاحة العامة، والمقيم في حانوته، والذي اعتاد على اسـتعمال أدوات حرفته، أن يمارس هو نفسـه مثل هذه الفلسـفة، وأن تكون له القدرة أن يقنع بها الآخرين، من شـعوب مدن أو قرى، لا بقوّة الفصـاحة، بل على العكس، بكونـه مجرّد من كل ثقافة[١٢]؟ اسـمعوه، مثلاً وهـو يقول بدون خجل: "وإن كنت عاميًـا في الكلام، فلسـت في العلـم" (٢كو١١: ٦). ولم يكن له ثروة وهذا أيضًـا قد أكده بقوله: "إلى هذه السـاعة نجوع ونعطش ونعرّى ونُلكم وليس لنا إقامة" (١كو٤: ١١). وفيم الكلام عن الثروة، بينما كثيرًا ما كان ينقصه القوت الضروري. والملبـس الواقـي؟ أمـا ضِـعَة مهنته فيشـير إليها تلميـذه حين يقـول: "ولكونه مـن صـناعتهما أقـام عندهما وكان يعمـل، لأنهما كانا في صـناعتهما خيامين" (أع ١٨: ٣). لم يكن لأجداده فضـل عليه في رفعته، وإلاّ فكيف يتفق ذلك ومهنة كهـذه؟ وكذلك لا فضـل لوطنـه أو أمّته عليه. ومع ذلك بمجـرد ظهوره في العلن أربك تمامًا معارضيه وأفحم الكلّ، وقَلبِ جميع الموازين، وكمثل النار التي تسقط على البوص أو على العشـب، فإنه حوّل سـلطان الشـياطين إلى رماد، وصيّر كل شئ بحسب ما يتمشّى وإرادته.

(١٢) قد يكون في هذا الكلام بعض المبالغة، فالقديس بولس كان ذا ثقافة يونانية ويهودية عميقة أشـار إليها ق. ذهبي الفم نفسـه في شتى أقواله عن ق. بولس.

١١ - ومما يثير الإعجاب في الأمر أنه بالرغم من قلّة الإمكانيات امتلك مثل هذه القوّة العظيمة، فمع أن غالبية التلاميذ كانوا فقراء، ومن أصلٍ متواضع، بلا ثقافة، ولا غذاء، مغمورين في حياتهم كما في أصلهم. وهذا ما أعلنه القديس بولس بنفسه، لم يخجل في التكلّم عن فقرهم، ولا حتى من طلب المال والطعام لأجلهم إذ قال: "أنا ذاهب إلى أورشليم لأخدم القديسين" (رو ١٥: ٢٥). وقال: "في كل أول أسبوع، ليضع كل واحد منكم عنده خازنًا ما تيسر، حتى إذا جئت لا يكون جمع حينئذ" (١كو١٦: ٢). وأيضًا كون الغالبية غير مثقفين فهذا ما يقوله في رسالته إلى أهل كورنثوس: "فانظروا دعوتكم أيها الإخوة، أن ليس كثيرون حكماء حسب الجسد" (١كو١: ٢٦)، ومن جهة ما يختص بأصلهم المتواضع يقول: "ليس كثيرون شرفاء" (١كو١: ٢٦)، وليس فقط غير شرفاء الأصل، بل أيضًا من عامة الشعب، هكذا: "بل اختار الله جهال العالم ليخزي الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء. واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود" (١كو١: ٢٧، ٢٨)، ومع أنهم كانوا بهذه الحالة فهل ياترى كانوا يملكون بطريقة أو بأخرى موهبة الإقناع والحجة؟ ولا هذا أيضًا، وقد أوضح هو نفسه ذلك عندما قال: "وأنا لما أتيت إليكم أيها الإخوة، أتيت ليس بسمو الكلام أو الحكمة مناديًا لكم بشهادة الله، لأني لم أعزم أن أعرف شيئًا بينكم إلاّ يسوع المسيح وإياه مصلوبًا. وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع" (١كو٢: ١، ٢، ٤).

١٢ - لكن هل مضمون الكرازة كان فيه ما يجذب ويستميل؟ اسمع ما قاله من جهة هذا الأمر: "لأن اليهود يسألون آية، واليونانيين يطلبون حكمة، ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوبًا: لليهود عثرة، ولليونانيين جهالة!" (١كو١: ٢٢، ٢٣)

كانت تمارس على نطاق واسع، والتصدي السريع والعنيف لكل جديد، ومع هذا ترى هؤلاء الناس الضعفاء يحرزون الانتصار، فقلّ لي ما هو السبب؟ لقد جرى كل ذلك بدقة. كما لو أن ملك أعدّ جيشه حسنًا بالعدة والعدد، وقاتل بطريقة مدروسة، ولم يستطع الانتصار على البرابرة، بينما إنسانًا فقيرًا، بدون سلاح، وحيدًا، ولم يكن في يده رمح أو ترس وبدون ثياب على الجسد، أتم بمجرّد وصوله ما لم يستطيع آخرون صنعه بالجيوش وبكل الأسلحة الحربية.

١٤ - فلا تكن سئ النيّة، وأيد الحق برأي ثابت، وأكرِم قوّة المصلوب. فإذا رأيت أحد يُقيم أسوار حول المدن، ويحفر خنادق حولها، وينصب آلات حربيّة إلى جانب أسوارها، ويضع أسلحة، ويجّند جنودًا، ويمتلك من المال شيئًا لا حدود له. ومع هذا لم يستطع أن يسيطر ولا على مدينة واحدة، ومن ناحية أخرى رأيت شخص يتقدّم بدون أن يكون على جسده أي شئ، ولم يستخدم إلاّ يديّه، ويهاجم، لا مدينة واحدة، أو اثنين، أو عشرين، بل آلاف المدن في العالم، ثم يستولى عليها وعلى مَنْ فيها، فليس في وسعك بعد ذلك أن تقول إن في الأمر قوّة بشريّة. ولهذا سمح الله أن يُصلب معه لصان، وقبل ظهور المسيح سمح أيضًا بظهور بعض المضلّلين، حتى تُظهر المقارنة، لأقصر الناس نظرًا سموّ الحقيقة، ويدركوا أن المسيح لم يكن واحدًا منهم، بل على العكس يوجد بينه وبينهم هوّة عظيمة، بل لانهائية. فما من شئ استطاع أن يخفي مجده، لا المشاركة في الآلام نفسها، ولا توافق الأزمنة. فإذا كان الصليب هو الذي تخشاه الشياطين، لا قوّة المصلوب، ففي مشهد اللصين إسكاتًا في الحال لأفواه الذين يقولون هذا. ومن جهة أخرى لو كانت صعوبة الظروف هي السبب في كل هذا، فإن أتباع ثوداس ويهوذا (أع ٥: ٣٦، ٣٧) يشهدان لصالحنا، وهما اللذان عملا محاولات شبيهة، ورافق

سعيهم معجزات أخرى كثيرة، ومع ذلك تشتتوا وتلاشوا. فإن الله- كما سبق أن قلت - سمح بهذا حتى يظهر عمله الخاص على وجه شديد الوضوح. ولهذا السبب سمح كذلك بظهور أنبياء كذبة في زمن الأنبياء، ورسل كذبة في زمن الرسل، حتى تعرف أنه لا يمكن أن يَتْرُك في الظلّ شيئًا من أعماله.

١٥ - هل ينبغي أن أوضّح بطريقة أخرى القوّة العجيبة والخارقة التي للكرازة بالإنجيل، وأن أُظهر لك كيف أن ق. بولس ارتفع واكتسب سلطان بفضل أولئك الذين كانوا يحاربونه؟ لقد قام بعض مناوئيه بالتبشير في روما بما يبشر به هو، وذلك لإثارة نيرون الذي كان يضطهد ق. بولس، وقد انطلقوا في كرزاتهم انطلاقًا امتدت معه نار الكلمة، وكثر عدد التلاميذ، وكان ذلك من شأنه أن يُزيد من غضب ذلك الطاغية، وأن يصبح هذا الوحش أكثر ضراوة، وبولس نفسه ذكر ذلك في رسالته إلى أهل فيلبي: "أريد أن تعلموا أيها الإخوة أن أموري قد آلت أكثر إلى تقدّم الإنجيل..... أكثر الإخوة وهم واثقون في الربّ بوثقي، يجترئون أكثر على التكلّم بالكلمة بلا خوف. أما قوم فعن حسد وخصام يكرزون بالمسيح، وأمَّا قوم فعن مسرّة، فهؤلاء عن تحزب ينادون بالمسيح لا عن إخلاص، ظانين أنهم يُضيفون إلى وُثقي ضيقًا. وأولئك عن محبة، عالمين أني موضوع لحماية الإنجيل. فماذا ؟ غير أنه على وجه سواء كان بعلة أم بحق ينادون بالمسيح..." (في ١: ١٢ - ١٨). هل ترى كيف كان كثيرون يبشرون بروح المكيدة؟ ومع ذلك فإن أعداءه كانوا يسهمون في انتصاره.

١٦ - وفي نفس الوقت كانت هناك عقبات أخرى. فالقوانين القديمة ما كانت تحميهم، بل تؤدي إلى اضطهادهم وشنّ الحرب عليهم، وكان هنالك خبث المفترين وجهلهم. كانوا، على حسب كلامهم، يعترفون بالمسيح ملكًا، ولم يكونوا

ليفكـروا في ملكوته، هذا الملكوت المهيب واللانهائـي، لكنهم كانوا يفترون عليهم بقولهم إن هؤلاء المبشّـرين كانوا يسـعون إلى إقامة سـلطة جديدة، مطلقة على سـائر أنحاء الأرض. ويحاربونهم على المستوى العام، وعلى المسـتوى الخاص: علـى المستوى العـام كانـوا يتهمونهم بالعمـل على تقويض الدولة والشـرائع، وأمّـا على المسـتوى الخاص فكانوا يدعـون بأنهم لم يتركوا أسـرة إلاّ ومزقوها وحطموها، فالأب يضـطهد ابنـه، والابن ينكر أباه، والنسـاء أزواجهن، والأزواج زوجاتهـم، والبنات أمهاتهن، والأقارب أقاربهم، والأصـدقاء أصـدقاءهم. وهذه الحرب متنوعة ومتعددة الوجوه، تتسلل إلى الأسر، وتحطم روابط الأهل، وتبعث الاضطراب في مجالس الشيوخ، والفوضى في المحاكم، ويرون إن عادات الأجداد وتقاليدهـم قد قُضـى عليهـا، وطقوس الآلهة هي أيضًـا تضـمحل، في حين أن كل المشـرّعين القدامى قد اعتنوا قبل كل شـئ آخر بحفظ هذه الأشـياء بيقظة شـديدة. وكانـوا يتّهمونهم بالتسـلط والطغيـان ولهذا طُردوا مـن كل مكان. ولا يمكـن القـول إن ذلك كان يجري عند اليونانيين وأن اليهود كانوا يلزمون الهدوء. بل إنهم بعكس ذلك كانوا يشعلون عليهم حربًا شعواء وقد وصلوا من جانبهم إلى اتهام ق. بولس بأنه المسـئول عن ضـياع حقوقهم الرومانية: "هذا الرجل لا يفتر عن أن يتكلّم كلامًا تجديفًا ضد هذا الموضع المقدس والناموس"[١٣] (أع ٦: ١٣).

١٧ - وفيما كان الأتون يتّوهج في كل مكان بنيران آتية من البيوت، من المدن، مـن القـرى، والأماكن المنعزلة، ومـن اليونانيين، ومن اليهود، من الرؤسـاء، ومن رعاياهم، من أفراد الأسرة الواحدة، من الأرض، ومن البحر، من الأباطرة، فيما كان الجميع يتبادلوا العنف، ويهاجمون بقسوة أشد من قسوة الوحوش، كان الطوباويّ

(١٣) هذه التهم وُجهت إلى الشهيد استفانوس أول الشهداء، ولكنها تنطبق أيضًا على القديس بولس الرسول.

بولس يندفع في وسط هذه النيران المتأججة، منتصبًا بين الذئاب، صائرًا هدفًا للضربات من كل جهة، فلا يقوى عليه أحد بل يقوى على الجميع ويقودهم جميعًا إلى الحق. هل من حاجة أن أذكر أيضًا مصارعات أخرى أشد إيلامًا: الجهاد ضد الرسل الكذبة، والتي كانت على نفسه الأشد تأثيرًا، تلك التي كان يسببها ضعف المؤمنين، إذ أن كثيرين استسلموا للإنحلال. لكن حتى أمام هذه التجارب، لم ينله شئ من الضعف. كيف، وبمعونة أي قوة؟ قال: "أسلحة محاربتنا ليست جسدية، بل قادرة بالله على هدم حصون. هادمين ظنونًا وكل علو يرتفع ضد معرفة الله" (٢كو١٠: ٤، ٥). لقد كانت جميع القلوب تتحوّل وتعزف سويًا إيقاعًا آخرًا.

١٨ - وكما تتلاشى الأشواك بسرعة في الأتون المشتعل، ثم تختفي تاركة المجال للهب الذي يُطهّر الحقول، كذلك كانت كلمات ق. بولس عندما تسمعها الأذن، تهاجم بشدة أكثر من شدة النار، فيختفي كل شئ ويصبح الموضع طاهرًا، من عبادة الآلهة، الأعياد والاجتماعات الاحتفالية المقامة لها، غضب الشعوب وثورتها، تهديدات الطغاة، مؤامرات الناس الذين من جنسه، خبث الرسل الكذبة. كما يمكننا التشبيه بالشمس: فعند شروقها تنقشع الظلمة، وتختبئ الوحوش وتتوارى، ويهرب اللصوص، ويأوى المجرمون إلى كهوفهم، ويبتعد قراصنة البحر، ويتراجع ناهبوا القبور، ويشعر الزناة وثاقبوا الأسوار بأنه سيفتضح أمرهم على ضوء الشمس، فيذهبون بعيدًا ويتوارون - إذ أن كل شئ يسطع ويتلألأ، الأرض والبحر، بفعل الشمس التي، من فوق، تنير كل الأشياء، البحار، والجبال، والريف، والمدينة- كذلك كرازة ق. بولس، فما أن تظهر للنور، وتنتشر في كل مكان، حتى ينهزم الضلال، وتعود الحقيقة، وتنتهي وتختفي شحوم الذبائح ودخانها، الصنوج والدفوف، ولائم السُّكر، أعمال البغاء والزنى، وكل الرذائل التي لا يليق ذكرها،

والتي كانت تمارس في هياكل الأوثان، تذوب كالشمع أمام النار، وتتلاشى كالقش أمام اللّهب، وعلى أنقاض ذلك كله تتصاعد شعلة الحقيقة، متألقة ساطعة، وترتفع حتى السماء نفسها، وبقدر أعلى مما كانت تُقاوم به، وبقوة أكثر مما يوضع في طريقها من عقبات، لا يقوى شئ ضد انتشارها وتقدمها، لا المخاطر، ولا جبروت الطغاة، ولا عادات الأجداد وتقاليدهم وشرائعهم، ولا مقتضيات التعاليم الوثنية الشائعة، ولا شئ آخر أيًا كان.

١٩ - ولكي تدرك ما في هذا الأمر من إعجاز، هدّد اليونانيين، لا أقول بالأخطار، ولا بأحكام الموت والجوع، بل بخسارة قليلة من المال، تجدهم في الحال ينقلبون ويَغيرون معتقدهم، وليس الأمر كذلك في ديانتنا، فإنها، وأن بُترت أعضاء أبنائها، أو ذُبحوا أو تعرضوا لحروب متنوعة الوجوه في كل مكان، لم تزداد إلاّ انتشارًا. ولماذا أتكلم عن اليونانيين الحاليين، هؤلاء الأدنياء الحقيرين؟ فلنبرز أولئك الذين كانوا جهابذة الأمس، واشتهروا في الفلسفة، أفلاطون، وفيثاغوراس[١٤]، وفيلسوف كلازومانس[١٥]، وآخرين كثيرين من هذا المستوى، وسترى آنذاك قوة الكرازة الإنجيلية. عندما تناول سقراط السمّ رحل بعض تلاميذه إلى موضع آخر خوفًا من أن يلاقوا نفس المصير، وطُرد الآخرون وُضِّيق عليهم، ولم يكن لهم أي أثر ما خلا إمرأة واحدة منهم[١٦]. أما فيلسوف كيتيون[١٧] فلم يترك جمهورية إلاّ في كتبه، وهكذا أنهى حياته. وبالرغم من أنه لم يكن أمامهم أية عقبة، ولا أي خطر، ولم تكن حياتهم مغمورة، بل على العكس كانوا ذوي بلاغة وثروة، وينتمون إلى وطن مشهور عالميًا، ومع هذا لم يكن لهم أي أثر.

(١٤) فيثاغوراس فيلسوف وشاعر عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

(١٥) هو أناكساغورس الذي أنشأ مدرسة في أثينا نحو سنة ٤٧٥،ومات منفيًا سنة ٤٢٨م.

(١٦) قد تكون المرأة ذيوتيمي التي أبرزها أفلاطون في كتاب "الوليمة".

(١٧) هو زينون مؤسس الفلسفة الرواقية.

هكذا طبيعة الضـلال، فإنها حتى لو خـلا من طريقها أي إزعاج، تذوب وتندثر، أمَّا طبيعة الحقيقة، فإنها، وإن حاربها الكثيرون، تزداد قوة وصمودًا.

٢٠ - هذا ما توضحه حقيقة الأحداث، فلا حاجة من ثمّ إلى خطب وكلمات، إذ أنّ الكون يرفع الصوت من جميع جوانبه، القرى والمدن، والبحر والبر، المناطق المسـكونة وغير المسـكونة ، وقمم الجبال كذلك. لأن الله لم يدع حتى الصحارى بـدون أن تنعـم بمواهبه[١٨]، فقد سـكب عليها بنعمه التي أتانا بها من السـماء، بواسطة لسان ق. بولس، وبفضل النعمة التي استقرت فيه، إذ أن هذا الرجل قد أظهـر من الغَيرَة ما يتناسـب والموهبة التي نالها، فتألقـت فيه النعمة تألقًا يندر مثله. بل إن أكثر الخيرات البهيجة التي ذكرناها نلناها إنما بفضل كلمته.

٢١ - بما أن الله قد كرّم البشـرية إلى درجة أن إنسـانًا واحدًا صنع كل هذه العجائب. فلنسع للتشبه بالقديس بولس، لنقتد به، لنبذل جهدنا لكي نصير نحن أيضاً مثله، ولا نظن أن هذا الأمر مستحيل، لأنه كما قلت مرارًا ولن أتوقف عن القول بأنه كان له جسـد مثل جسـدنا، ويحيا مثلنا، وله نفس مثلنا، ولكنه امتاز بـإرادة عجيبـة وغَيرَة ملتهبة، وفي هذا كانت عظمته. لذلك ليت لا أحد ييأس أو يتراخى أو يهمل نفسـه. فإنك إن أحسـنت إعداد نفسك لن يمنعك مانع من نيل النعمة نفسها. "أن الله لا يقبل بالوجوه" (أع ١٠: ٣٤، رو٢: ١١) : هو الذي شكّله، وهو الذي أتى بك، وإن كان سيده فهو سيدك أيضًا، وإن كان قد مدحه علانية، فهو يريد بالمثل أن يكللّك أيضًـا. فلنقدم له ذواتنا، ولنطهر نفوسـنا حتى إذا نلنا بدورنا النعمة بغزارة، ننال نفس الخيرات، بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقوة الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

(١٨) يشير إلى الحياة النسكية التي ازدهرت حين ذاك في شمالي أنطاكية، وفي مصر وآسيا الصغرى وفلسطين.

العظة الخامسة

تدبير القديس بولس الرسول

١ - أين أولئك الذين يُلقون المسئولية على الموت بقولهم أن الجسد الضعيف والخاضع للفساد هو العائق لهم للتقدم نحو الفضيلة؟ فليصغوا إلى الفضائل البطولية التي للقديس بولس، وليجحدوا هذا الإفتراء الذي يوحي به الشيطان. ففي أي شئ أضر الموت بطبيعتنا؟ ومتى كان الفساد الطبيعي عائقًا عن الفضيلة؟ تأمل في ق. بولس وسترى أن الموت الذي حُكم به علينا كان لنا مصدر نفع جزيل. فلو لم يكن ق. بولس قابلاً للموت لما استطاع أن يعبر بأعماله عما قاله: "إني بافتخاركم الذي لي في يسوع المسيح ربنا أموت كل يوم" (١كو١٥: ٣١). ففي كل مواقفنا نحتاج إلى الجرأة والشجاعة، وأن تكون لنا الغَيرَة، حينذاك لن يمنعنا أحد من أن يكون لنا موضع في الصفوف الأولى. ألم يكن هذا الرجل قابلاً للموت؟ ألم يكن عاميًا؟ ألم يكن فقيرًا؟ ألم يكن له جسد خاضع لكل ضرورات الطبيعة؟ ما الذي منعه من بلوغ هذه العظمة؟ لا شئ.

فلا ييأس أحد لكونه عامّي، ولا يفقد أحد شجاعته لكونه فقيرًا، ولا يحزن أحد لكونه من عامة الشعب، فليكن ذلك كله نصيب ذوي النفوس الخائرة، والقلوب الضعيفة. نعم، هناك عائق واحد في طريق الفضيلة: نفس خليعة، وخلق مستهتر، غير ذلك لا شئ أبدًا يمثل عائق.

فبولس الطوباوي، الذي جمعنا اليوم يُظهر هذا بوضوح. فكما إن حالته لم تسبب له أي ضرر، كذلك الوثنيين لم توفر لهم حالتهم المختلفة أي ميزة، لا مهارتهم الخطابية، ولا ثروتهم الكبيرة، ولا شهرتهم العظيمة، ولا ممارستهم للسلطة.

٢ – لماذا نتكلّم عن البشر؟ وبكلام أدق، إلى متى أواصل حديثي على مستوى الأرض، بينما يمكننا الكلام عن القوّات العلويّة، السلاطين، وعلى ولاة عالم الظلمة هذا أيضًا؟ أي فائدة استفادوها من طبيعتهم السامية؟ ألن تقف كل القوات السماوية أمام ق. بولس وأمام من يماثلونه؟ وهو القائل: "ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة؟ فبالأولى أمور هذه الحياة!" (١كو٦: ٣). حسنًا شئ واحد يجعلنا نتألم: الخطية، وشيء واحد يفرحنا ويبهجنا: الفضيلة. فلنسعى إليها بحرارة ولا شيء يمنعنا من مشابهة ق. بولس.

٣ – إن ق. بولس لم يبلغ هذا السمو بقوة النعمة فقط، بل بإرادته الشخصية أيضًا، وكان عمل النعمة في نفس الوقت مع عمل الإرادة فيه. لأنه امتلك إلى أقصى حد كنزين: المواهب الآتية من روح الله، والقوى التي تنبع من الإرادة الشخصية.

هل تريد أن تعرف دور نعمة الله فيه؟ الشياطين كانت تخشى من ملابس ق. بولس (أُنظر أع ١٩: ١٢) لكن ليس هذا هو الشيء الذي أُعجب به، ولا كون ظِلُّ ق. بطرس يشفي المرضى، إنما ما أعجب به هو أنه قبل أن ينال هذه النِعَم الإلهية، ومنذ البداية وقبل كل شيء، قبل أن يملك هذه القدرة الخارقة، وقبل أن توضع عليه الأيادي، اضطرم بغَيرَة المسيح إلى درجة أنه أثار في وجهه وعليه الشعب اليهودي كله. وعندما وجد نفسه وسط هذه المخاطر الشديدة التي أحدقت بالمدينة كلها، تم إنزاله في سلٍّ من طاقة في سور المدينة، وما إن وضع قدميه على الأرض، بدلاً من أن يمتلئ من الخوف والجبن، اشتدت به الغَيرَة الرسولية. وإن كان قد تجنب المخاطر فهذا لكي يواصل رسالته على أفضل وجه، فإنه لم يتهرب قط عندما كان يدعوه واجب تعليم الإنجيل. بل على العكس من

ذلك كان ينظر إلى الصليب ويسير في إثره. إذ كان مثال استفانوس لازال ماثلاً أمام عينيه، ولاسيما اليهود وهم ينفثون قتلاً، ويرغبون في التشفي منه. وفي الحقيقة فإن ق. بولس لم يكن ليرمي بنفسه في المخاطر بغير تبصر، ولكنه كان، من ناحية أخرى، إذا لجأ إلى الفرار، لا ينقص فيه العزم ولا تتضاءل عنده الهّمة.

كان شديد التعلق بالحياة الحاضرة من أجل الفائدة التي يمكنه أن يجنيها منها، وكان شديد الاستخفاف بها بسبب النعمة التي كانت تبعث فيه هذا الاستخفاف، أو بالحري بسبب اندفاعه في طريقه إلى المسيح (أُنظر في ١: ٢٣).

٤ - لأني أقول دائمًا بشأنه، ولن أتوقف أبدًا عن القول إن لا أحد في وجود موقفين متناقضين، استطاع أن يسلك بهذه العناية الدقيقة على كلا المستويين في آن واحد. وعلى أي حال لم ينجذب أحد مثله إلى هذا الحد للحياة الحاضرة، ولا حتى الذين أغرموا بها، ولا أحد ازدرى بها إلى هذا الحد حتى الذين بلغوا القمة في التقشف.

إن ق. بولس كان مترّفعًا عن كل شهوة ولم يمل إلى أي شئ من أمور هذا العالم، لكن في كل موقف كانت رغباته متفقة مع إرادة الله. فهو من جهة أعلن أن المكوث ههنا على الأرض أشد إلحاحًا عن أن يوجد مع المسيح (في ١: ٢٤)، ومن جهة أخرى يرى في الوجود بالجسد حملاً ثقيلاً مُؤلمًا إلى درجة أنه يئن ويشتهي الإنطلاق (في ١: ٢٣، ٢كو ٥: ٤). ولم يكن له من الرغبات إلاّ نوع واحد، وهي تلك التي تتوافق مع قصد الله، حتى لو خالفت هذه الرغبات رغباته السابقة.

أجل، كان ق. بولس شخصًا ذو قدرات متنوعة ومتعددة، ولم يكن في ذلك أي شيء يمت بصلة إلى الرياء. حاشا لله، بل إنه يتكيّف على الدوام مع ما تقتضيه

الكرازة بالإنجيل وخلاص الناس، وفي ذلك كان يقتدي بسيده.

٥ - في الحقيقة فإن الله ظهر أيضًا على شكل إنسان عندما كان هذا الظهور ضروريًا، ليس في وسط النار كما قضى الموقف قديمًا (خر٣: ١ - ٦)، بل مرّة على شكل جندي (يش ٥: ١٣)، ومرّة تحت شكل قديم الأيام (دا ٧: ٩ - ١٤)، ومرّة في النسيم (١مل١٩: ٩-١٣)، ومرّة في شكل مسافر (تك ١٨: ١ - ٥)، وأخيرًا كظهور حقيقي في الطبيعة البشريّة التي قادته إلى قبول الموت. وعندما أقول: "إن ذلك الظهور كان ضروريًا" فلا يأخذ أحد قولي هذا على معناه الحرفي، فليس هناك ضرورة بالمعنى الدقيق، بل كان الدافع فقط هو محبته للبشر. وهناك من الأقوال مثل: "الجالس فوق الكروبيم"، "ياجالس على الكروبيم" (اُنظر ٢مل ١٩: ١٥، مز٨٠: ٢). جميع هذه الظهورات كان يلجأ إليها وفقًا للظروف. ولهذا السبب جعل النبي أيضًا يقول: "كثرت الرؤى، وبيد الأنبياء مّثلت أمثالاً" (هو ١٢: ١٠).

٦ - إن ق. بولس لم يكن يستحق اللوم عندما اقتدى بسيده، فتصرّف أحيانًا كيهودي، وأحيانًا كمتحرّر من الناموس (اُنظر ١كو ٩: ٢٠، ٢١)، أحيانًا يتقيّد بالناموس وأحيانًا يتخطاه، أحيانًا يتعلّق بالحياة الحاضرة، وأحيانًا يزدريها، أحيانًا يطلب المال، وأحيانًا يرفض ما يُعطى له، أحيانًا يقدّم ذبيحة ويحلق رأسه، وأحيانًا يهاجم من يفعلون هكذا، وأيضًا يمارس الختان، وتارة يرفضه (اُنظر أع ٢٤: ١٧، رو١٥: ٢٦ - ٢٨، أع ٢٠: ٣٣، ٣٥، ١٨: ١٨، ٢١: ٢٣، ٢٤، غلا ٤: ٣، ٩، ١٠، أع ١٥: ١، ٢، رو٢: ٢٥، ٢٩) إن هذه المواقف كانت بدون شك متناقضة، لكن القرار والنيّة، التي ألهمت هذه المواقف كانت مترابطة، ولم تكن إلاّ واحدة. لأنه لم يكن لهما إلاّ هدف واحد وهو: خلاص الذين يسمعونه

ويرونـه. لهـذا كان أحيانًا يمجّـد الناموس وأحيانًا أخرى يتخطـاه. وبالتأكيد لم يكن ق. بولس متنوعًا ومتعددًا في أعماله وحسـب، بل أيضًـا في أقواله، دون أن يكـون في هـذا تغيير لرأيه، أو تبديل لسـلوكه، بل على خـلاف ذلك ظل على ما كان عليه، وفي كل حالة من التي ذكرناها كان يساير متطلبات الموقف. فعلينا ألاّ نلومه لهذا السـلوك، بل ليكن ذلك داعيًا إلى الإشادة بفضائله إشادة لا حد لها، وإلى منحه الإكليل الذي يستحقه.

٧ - وتلـك حـال الطبيب، عندما تـراه أحيانًا يكّوي جرحًـا، وأحيانًا يداويه، أحيانًا يسـتخدم المشـرط وأحيانًا أخرى يسـتخدم المرهم. أحيانًا يمنع المريض عن الأكل والشرب، وأحيانًا يسمح له بأن يُكثر من تناولها. أحيانًا يأمر أن يُغطى المريض تمامًا بالأغطية، وأحيانًا عندما يكون دافئًا، يأمر له بكأس ماء بارد. فلا تتهم الطبيب بعدم الثبات أو بالتقلب المسـتمر، بل بعكس ذلك ستمتدح المهارة إذ تراه يسـتخدم وسـائل ظاهريًا تبدو متناقضة أو ضـارة، ولكنها في الوقت نفسه تقود المريض إلى الصـحة. إنه طبيب ماهر: فإن كنا نمتدح الطبيب عندما يلجأ إلى هـذه الطريقة المتناقضـة في العلاج فبالأولى جدًا ينبغـي أن نمجد جدًا ق. بولس الذي سـلك على هذا المنوال من جهة الذين يتألمون. لأن النفوس المريضـة تحتاج في علاجها إلى مهـارة أكثر من مرضـى الأجسـاد، بـل على خلاف ذلك، لو تصدى أحد لعلاج النفوس بدون مهارة، فإن فرص الشفاء ستتلاشى.

٨ - أليس هذا مثيرًا للدهشـة أن نرى البشر يتصرفون بهذا الأسلوب، بينما الله بالرغم من قدرته الكليّة يسـتخدم نفسـ الطريقة المعتادة للأطباء، ويعاملنا بحـرص شديد؟ الله يريدنا أن نكون أتقيـاء من تلقاء أنفسـنا وليس تحت ضغط أو إكراه، ولهذا السـبب احتاج اللجوء إلى هذه التصـرفات المتعارضـة، ليس عن

عجز من جانبه، حاشا! أن يكون لنا هذا الفكر، بل بسبب ضعفنا. وهو في الحقيقة يكفيه أن يشير إشارة، أو بالأحرى أن يشاء لتتم كل مقاصده، أما نحن فلأننا أصبحنا أسيادًا على أنفسنا فنحن لا نتحمّل أن نخضع له الخضوع الواجب. ولو قادنا مكرهين لكان قد نزع منا ما وهبه لنا، أقصد حريّة الإرادة. فلكي تجري الأمور على هذا النحو، فإنه لجأ إلى تصرفات متنوعة. وليس ذلك عبثًا أنني أقول هذا، بل بسبب المواقف المتنوعة لبولس الطوباوي ومهارة سلوكه. فعندما تراه يهرب من المخاطر عليك أن تُعجب بنفس القدر عندما تراه يتحداها. فإذا كان هذا الموقف الأخير علامة على الشجاعة، فإن الموقف الأول شاهد عن حكمته. وعندما تراه يتكلّم بسلطان عليك أن تعجب به بنفس القدر عندما تكون لهجته معتدلة، فإنه في هذه الحالة يُبدي تواضعًا، وفي الموقف الأول عزّة نفس. عندما تراه يفتخر، عليك أن تُعجب به بنفس القدر عندما يرفض المديح، فإن كان الموقف الثاني يكشف عن تواضعه، فإن الموقف الأول ينبع من قلب يفيض رقة وصلاحًا. وفي الحقيقة إن كل أعماله تصدر عن رغبته في تقديم الخلاص للكثيرين.

٩ - لهذا السبب كان يقول أيضًا: "لأننا إن صرنا مختلين فلله، أو كنا عاقلين فلكم" (٢كو٥: ١٣). بالتأكيد لا أحد مثله كان له هذه المواقف الصعبة التي تتيح له الإنزلاق إلى غرور الكبرياء، ولا أحد كان بعيدًا إلى هذا الحد من الكبرياء مثله. فلنفتكر إذن: "العلم ينفخ" (١كو٨: ١). ونحن كلنا يمكننا أن نقول ذلك معه، لكن العلم عنده كان من العلّو بدرجة لم يملك أحد غيره في العالم ما ناله هو، ومع هذا بدلاً من أن يترك نفسه للزهو، فإنه وجد فيه أيضًا دافعًا للتواضع. ولهذا يقول: "لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ" (١كو١٣: ٩)، وكذلك:

"أيها الإخوة، أنا لست أحسب نفسي أني قد أدركت"(في ٣: ١٣)، وأيضًا: "فإن، كان أحد يظن أنه يعرف شيئًا، فإنه لم يعرف شيئًا بعد" (١كو٨: ٢). الصوم هو أيضًا ينفخ، والفريسي قد أظهر هذا بوضوح عندما قال: "أصوم مرتين في الأسبوع" (لو ١٨: ١٢). بالنسبة لبولس الطوباوي لم يكن الأمر هكذا من جهة الصوم، بل على خلاف ذلك كان الجوع هو الذي يرهقه، ومع ذلك دعا نفسه "السقط" (أُنظر ١كو١٥: ٨).

١٠ - ولماذا نتكلّم عن الصوم والعلم، بينما هو بدون شك، يناجي الله مناجاة سامية ومتواصلة، لم يكن لأي نبي أو رسول مثلها أبدًا، وكيف أنها كانت تزيده إتضاعًا؟ لا تكلمني عن تلك التي أوردها في كتاباته، لأنه أصر على إخفاء أكثرها، وهو لم يقل كل شئ لكي لا ينسب لنفسه مجدًا عظيمًا، ومن ناحية أخرى لم يغفل كل شئ لكي يغلق أفواه الرسل الكذبة. لأن هذا الإنسان لم يتصرّف عبثًا أبدًا، لكن دائمًا كان التعقل أساس كل عمل يعمله، وكانت المتناقضات تعالج لديه بمنتهى الحكمة فتجلب له المديح الدائم.

وهذا ما أريد أن أقوله: إنها لفضيلة عظيمة أن لا يتحدّث الإنسان عن نفسه بألفاظ فيها زهو وافتخار، وإن كان ق. بولس يفعل ذلك، عندما تقتضي الضرورة، كما كان صمته ككلماته يستحق المديح. ولو كان لم يتصرّف هكذا لوُجه إليه اللوم أكثر مما يلام الذين يمدحون أنفسهم عن غير حق. وفي الحقيقة لو لم يكن قد افتخر لكان خسر، وقوّى جانب أعدائه ورجح كفتهم. إنه عرف على وجه الخصوص كيف يستفيد حسنًا من الظروف، ويعمل بنيّة مستقيمة، على ما هو محل للنقد ويجعله هكذا مفيدًا بحيث تصبح قيمة عمله كقيمة العمل بالوصايا. نعم إن ق. بولس بافتخاره نال مجدًا أكثر من أي شخص آخر يخفي فضائله

العظيمة. وفي الحقيقة ما من أحد صنع قدرًا من الصلاح بكتمان فضائله أكثر من هذا الإنسان في إعلانه عنها.

١١ - ومما يدعو إلى الإعجاب به أكثر هو أنه وإن كشفها فهو لم يكشف منها إلاّ ما كان ضروريًا. ولم يكررّ ذلك، إذ أنه لم يعتبر أن هذا التصرّف ذريعة للتكلّم عن نفسه، ولكنه كان يعرف الحد الذي يجب التوقف عنده. وأيضًا هذا بالتحديد لم يكفه، فلكي يَحُول دون تورط الآخرين بتشجيعهم على امتداح أنفسهم دون سبب، وصف نفسه بالجاهل، وهو بالحق لم يتصرّف بهذه الطريقة إلاّ عندما كانت تقتضي الحاجة. وقد يحذو حذوه آخرين دون تبصّر فيتعرّضون للهلاك، مثلما يحدث أيضًا للأطباء مرارًا فكثيرًا ما يصف الواحد منهم دواءً ملائمًا وفي الوقت المناسب، فيأتي آخر ويبدل طريقة استعماله وموعده، فيبطل مفعوله.

١٢ - لكي لا يكون الأمر هكذا في مثل هذه الحال، أُنظر أي حيطة أخذها ق. بولس عندما كان عليه أن يفتخر فقد سعى في نفس الوقت إلى الهروب منه ليس فقط مرّة أو اثنتين، بل مرارًا فقال: "ليتكم تحتملون غباوتي" (٢كو١١: ١). وكذلك: "الذي أتكلّم به لست أتكلّم به بحسب الرب، بل كأنه في غباوة... لكن الذي يجترئ فيه أحد، أقول في غباوة: أنا أيضًا اجترئ فيه" (٢كو١١: ١٧، ٢١). ثم دون أن يكتفي بكل هذه الحيطة الكلامية، عندما كان على وشك أن يركب موجة الافتخار أخفى شخصيته قائلاً: "أعرف إنسانًا في المسيح.." (٢كو١٢: ٢) وأيضًا: "من جهة هذا أفتخر ولكن من جهة نفسي لا أفتخر إلاّ بضعفاتي" (٢كو١٢: ٥). وأخيرًا: "قد صرت غبيًا وأنا أفتخر. أنتم ألزمتموني" (٢كو١٢: ١١). لذا فعندما ترى هذا القديس العظيم، وقد اضطرّته المواقف، فإنه يتردّد ويتراجع قبل الشروع في الحديث بفخر عن نفسه، مثل فرس وصل

إلى حافة جرف خطيرة، فأخذ يرفس ويقاوم. فلو لم يتجّنب الإنسان بكل قواه مثل هذا السلوك، ولا يلجأ إليه إلاّ عند الضرورة القصوى فسوف يكون جاهلاً وأحمق حتى لو كانت الأمور التي يتناولها في غاية الأهمية.

١٣ - هل تريد أن أظهر لك أيضًا وجهًا آخرًا للقديس بولس؟ الأمر العجيب هو أنه لم يكتفِ بشهادة ضميره، بل أراد أن يعلّمنا كيفية معالجة المواقف المتباينة. فقد كان يبرر نفسه مبرهنًا أن الظروف كانت تفرض عليه موقفًا معينًا، وبذلك كان يعلّم الآخرين ألاّ يمتنعوا عن هذا السلوك، إذا وُجدوا في الحالة نفسها، دون أن يسعوا إلى ما هو في غير محله. وقد عبّر ق. بولس في كلماته على وجه التقريب ما يلي: "إنه شر عظيم أن يتكلّم الإنسان عن نفسه بكلمات فيها افتخار وإعجاب، وإن لمن أسوأ درجات الحمق أن يتزيّن الإنسان بكل أنواع الافتخارات، عندما لا يدفعه لهذا أية ضرورة، وبطريقة التعالي والاستقواء، ليس أسلوب الكلام هذا أسلوب الربّ، ولكنه مظهر حمق وجنون، يضيّع أجرنا، بل ويضيّع كل أتعابنا وجهودنا". والأهم من ذلك أيضًا أنه، حتى في حالة الضرورة بدلاً من أن يتفاخر أمام كل العالم بانجازاته، فإنه يخفي أغلبها، وأعظم ما فيها. يقول: "فإني آتي إلى مناظر الرب وإعلاناته... ولكني أتحاشى لئلا يظن أحد من جهتي فوق ما يراني أو يسمع مني" (٢كو١٢: ١ - ٦). وبقوله هذا فإنه يعلّمنا جميعًا أنه فى كل المواقف وحتى في موقف الضرورة لا ننشر ونُظهر أمام الكل كل ما نعرفه عن أنفسنا، بل نقتصر في ذلك على ما هو مفيد لسامعينا.

١٤ - هذا ما فعله أيضًا صموئيل النبي، وليس عبثًا أن نأتي على ذكر هذا القديس، لأن لنا فائدة في ذلك أيضًا. ذات يوم افتخر ذاك الإنسان وبيّن بعض الأوجه من فضيلته (١صم ١٢: ١ - ٥). لكن ما تلك الفضائل التي أعلنها؟ إنها

تلك التي يمكن أن تكون نافعة لسامعيه. إنه لم يقل خطابًا مطولاً عن العفة، أو عن التواضع، أو في التغاضي عن الإهانات، فيم إذن تكلّم؟

إنه تكلّم عن الأمور التي كان شاول ملك ذلك الزمان في حاجة ملحة لأن يتعلّمها أولاً، ضرورة الحكم بالعدل، ولزوم حفظ يديه نقيتين من الرشوة. داود أيضًا، عندما كان يفتخر، افتخر بما يمكنه أن يضع سامعيه على الطريق المستقيم، فلم يشير إلى أيّ من مآثره إلاّ تغلّبه على الأسد والدب (١صم ١٧: ٣٤-٣٧). هذا هو كل ما أظهره، ولم يُظهر شيئًا سواه. إن القول بالمزيد طمع وتبجح، ولكن قول ما تتطلّبه الضرورة كان علامة على أنه رجل كريم ينظر لمنفعة أكبر عدد ممكن من الناس. وهكذا تصرف ق. بولس أيضًا، فعندما افتروا عليه، بقولهم إنه لم يكن رسولاً حقيقيًا، وأنه لم يكن له سلطان مثل بقيّة الرسل. فكان من اللازم بسبب هذه التهم، أن يأتى إلى التعرّض للأحداث التي تثبت مكانته بوضوح.

١٥ - هل ترى أية وسائل استخدمها ليعلّم كيف ينبغى الابتعاد عن الفخر بدون داع؟ أولاً: يشرح أنه تصرّف هكذا عن ضرورة، ثانيًا: إنه ذهب إلى إنزال نفسه منزلة الجاهل، وإلى الاعتذار عدة مرات، ثالثًا: بدلاً من أن يعلن كل شيء، فإنه أخفى أكثر الافتخارات أهمية وهذا أيضًا في حالة الضرورة، ورابعًا: يخفى نفسه وراء شخص آخر، قائلاً: "أعرف إنسانًا في المسيح.." (٢كو ١٢: ٢)، وخامسًا: إنه لم يُظهر أمام كل الناس جميع فضائله، بل أظهر فقط ما يتطلّبه منه الظرف الحاضر.

١٦ - هذا التصرّف لن تلاحظونه فقط عندما يفتخر، بل أيضًا عندما يثور ويستشيط غضبًا. لاشك في إن إهانة الأخ أمر ممنوع، حسنًا، ومع ذلك فقد قام بذلك عند الضرورة وبلباقة اكسبته من التقدير أكثر مما تُكسب المعاملة

الحسنة من مديح. ولهذا السبب عندما أنزل الغلاطيين منزلة "الأغبياء" (غلا ٣:١) مرّة، ومرّتين، وقال عن أهل كريت إنهم "وحوش ردية. بطون بطالة" (تى ١:١٢). كانت طريقته في الكلام مدعاة لمدحه. وهو في الحقيقة رسم لنا حدًا وقاعدة، بحيث أنه في وجود الناس الذين يقصرون في واجباتهم نحو الله، بدلاً من اللجوء إلى المداراة يمكننا أن نقف منهم موقف التعنيف. وهكذا لكل موقف نجد عنده المكيال المناسب. لهذا كانت كل أعماله كما في كل أقواله، فإنه يقف موقف الرجال، عندما يحتد، أو عندما يمتدح، أو عندما يُظهر اشمئزازه، أو عندما يستخدم المداراة، أو عندما يمجدّ شخصه، أو عندما يتضع، أو عندما يفتخر، أو عندما يظهر بمظهر المسكنة، ولماذا تندهش لفكرة اُمتداح الإساءة والإهانة، بينما في الحقيقة إن القتل نفسه وبالمثل الغش والاحتيال قد امتدح في العهد القديم كما في العهد الجديد[١٩]؟

١٧ - فلنفحص بتمعّن شديد كل طرق التصرّف هذه، ثم نُبدى إعجابنا بالقديس بولس، ونمجد الله، ونسلك معه السلوك نفسه، حتى ننال لأنفسنا كل الخيرات الأبدية، بنعمة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقوة الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

---

(١٩) نجد في العهد القديم أقوالاً مختلفة في امتداح الإحتيال (تك ٢٧، يهو ١٠:١١-١٣) والقتل في سبيل تحرير المظلومين أو في سبيل الحفاظ على الإيمان في إسرائيل (١صم ١٧:٣٨-٥٤، ٢مل ١٨:٢٠، يهو ١٣:٤-٢٠) ونجد في أمثال العهد الجديد امتداحًا للحذق، (لو ١٦:١-٩)، ونحن نعلم أن فى العهد الجديد تشديدًا على المعاملة بالحسنى وعلى المغفرة والتسامح (مت ٥:٣-١٢، ٦:٤٣-٤٨، لو ٦:٢٧-٣٨).

العظة السادسة

اللوم الموجه إلى القديس بولس يُزيده عظمة

١ - هل تريدون اليوم، يا أحبائى، أن نضع جانبًا الفضائل العظيمة والعجيبة التي لبولس الطوباوي، ونضع أمام أعيننا ما يبدو وكأنه يعطى للبعض حجة من أجل الهجوم عليه، وإن كنا سنرى أن هذه الحجج كسائر الحجج الأخرى، تؤول إلى جعله مشهورًا وعظيمًا. وما الذي يدفعهم إلى ذلك؟

يقولون رأوه يومًا يخاف من الضرب بالسياط. نعم، رأيناه، عندما مددوه للَجلْد (أع ٢٢: ٥)، وليس فقط في هذه المرّة، بل أيضًا مرّة أخرى في شأن بائعة الأرجوان، إذ قاوم من أرادوا إخراجه من السجن (أع ١٦: ٣٥-٤٠). ويدّعى هؤلاء أنه حينما تصرّف بهذه الطريقة لم يكن له غرض سوى تأمين سلامته، وتجنب الوقوع في نفس الضيقة مرّة أخرى. بماذا يمكننا أن نجيب عن ذلك؟

لا شيء يدلّ على عظمته السامية، أكثر من هذه الأحداث المذكورة. والبرهان على ذلك هو أنه، مع ما في شخصه من قلة الجرأة والحصافة وحسن التفكير، ومع ما في جسده من ضعف لمقاومة ضرب السياط ومن ارتجاف أمام الجَلْد، كان كالقوات غير الجسدانية يزدرى بكل ما يُحسب مرعبًا عندما يتطلّب الأمر كذلك.

عندما يحتج بشدة وهو في الوقت ذاته منكمشًا وخائفًا، تذكر تلك الكلمات الشهيرة التي اخترق بها السماء ونافس الملائكة: "من سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُرى أم خطر أم سيف؟" (رو ٨: ٣٥). تذكر هذه الكلمات التي أكد فيها أن هذا كله ليس بشيء: "لأن خفة

ضـيقتنا الوقتية تُنشـيء لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديًا. ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل إلى التى لا تُرى" (٢كو ٤: ١٧، ١٨). أضف إلى ذلك المتاعب والضيقات اليومية، والموت الذي كان يعاينه كل يوم (١كو ١٥: ٣١)، فإذا فكرت في هذا كله فانظر بإعجاب إلى القديس بولس ولا تنسب له الجبن.

٢ - كل ما يبدو ضعفًا في الطبيعة هو بالتأكيد برهانًا قويًا على فضيلة هذا الرجـل، إذ أنـه قد صـار عظيمًا، بالرغم أنه لم يكن مجردًا من الضـعفات التي نشـترك فيها جميعًا بحكم الطبيعة. وإن كمّ الأخطار التي تعرض لها قد توحى للكثيرين على الظن، أنه قد صار عظيمًا لأنه أرفع من البشر: لهذا قد أعطى له أن يتألم حتى تعلم أنه، وإن كان على مسـتوى الطبيعة على نفس مسـتوى البشر، ولكن على مستوى الإرادة لم يفوقهم فقط بل بلغ إلى مرتبة الملائكة. في الحقيقة كانت نفس القديس لا تختلف عن نفسـنا، وجسـده لا يختلف عن جسـدنا، ومع أنه واجه الموت مرّات عديدة، إلاّ أنه اسـتخف بكل الضـيقات سـواء الحاضـرة أو المسـتقبلة- لهـذا قـال أقوال عجيبـة بل بعيدة المنـال عـن إدراك الكثيرين: "فإنى كنت أود لو أكون أنا نفسى محرومًا من المسيح لأجل إخوتى انسبائى حسب الجسد" (رو ٩: ٣).

٣ - باسـتطاعتنا، إذا أردنـا، ان نسـيطر بقـوة الإرادة، علـى أى اضـطراب طبيعـى، ومـا من شـيء ممـا طلبه منا المسـيح، مسـتحيل علـى البشـر. فإذا قدّمنـا كل مـا في وسـعنا مـن غَـيرَة، فـإن الله سـيجعل كفـة الميـزان تميـل لصـالحنا، وهكذا نصـبح محصـنين ضـد كل الأخطار التي تهاجمنـا. لا، ليس الخـوف مـن الجَلْد هو الذي يسـتحق الإدانة، بل السـلوك الـذي لا يليق برجل دين خوفًـا مـن الجَلْد، فرغم الخـوف من الجَلْد يقف الإنسـان صـامدًا وثابتًا

فيصبح مثارًا للإعجاب أكثر من ذلك الذي لا يخافه. ففي هذه الظروف تتلألأ الإرادة: إن كان الخوف يصدر عن الفعل الطبيعى، فالأصرار أن يتصرّف الإنسان كما يليق بمحبته لله رغم خوفه الطبيعى يكون نابعًا من الإرادة التي تسند ضعف الطبيعة وتجعلها تنتصر على ضعفها.

وهكذا فإن كان هناك إنسان حزينًا لأمر ما، فهذا أمر لا يدان عليه، أما أن يتصرّف بسبب هذا الحزن بطريقة لا ترضى الله فذلك ما يُدان عليه.

لو قلت إن ق. بولس لم يكن إنسانًا لجاز لك أن تدحض كلامى إذا أنك سوف تضع نصب عينيك النقص في طبيعته. ولكن إذا قلت وأكدت لك بقوة إنه كان إنسانًا، وأن طبيعته لا تفوق طبيعتنا، ولكنه كان ذو إرادة أقوى من إرادتنا، كان اعتراضك بلا جدوى، أو بالأحرى لن يكون لصالحك، ولكن لصالح ق. بولس. فإنك تُظهر بذلك إلى أيّة درجة من العظمة وصل هذا الرجل، الذي، وهو في طبيعة شبيهة بطبيعتنا، امتلك قوّة تفوق القوّة التي لنا. ولن تكتفى بتمجيده بل في ذات الوقت تستد أفواه الذين عجزوا أن يقدّموا براهين ليحطوا بها من قدره. بل على العكس تدفعهم إلى تفعيل إرادتهم.

٤ – وقد يذهبون إلى أنه خشى الموت أيضًا. لاشك في ذلك، فهذا فعل الطبيعة. ومع ذلك فهذا الإنسان نفسه هو الذي قال: "فإننا نحن الذين في الخيمة نئن مثقلين" (٢كو٥:٤)، وأيضًا: "نحن أنفسنا أيضًا نئن في أنفسنا" (رو ٨:٢٣). هل لاحظت كيف يقابل ضعف الطبيعة بالقوة الي تعطيها الإرادة؟ وهذا ما يجعل كثيرين من الشهداء وهم على وشك أن يتم مثولهم للتعذيب، يشحب لونهم أمام الموت، ويمتلئوا من الخوف والضيق، لكن لهذا السبب بالتحديد هم يثيرون الإعجاب، لأنه مع خوفهم من الموت لا يهربون منه لأجل يسوع. وتلك حال

ق. بولس، فإنه وإن خشـى من الموت، لم يرفض حتى الجحيم (رو ٩:٣) من أجل يسـوع الذي كان يحبه حبًا جمًا، ومع رعبه من فكرة موته، إلاّ أنه كان يرغب في الإنطلاق من العالم (في ١:٢٣)، لم يكن هو فقط الذي اختبر مثل هذه المشـاعر بـل أيضًـا بطرس بعد أن أعلن مـرارًا أنه مستعد أن يبذل حياته، كان شـديد الخوف من الموت (مت ٢٦:٣٣-٣٥، مر ١٤:٢٩، ٣١، لو٢٢:٣٣، يو١٣:٣٧). اسـمع مثلاً عبارات تكلّم معه المسـيح حول هذا الموضوع: "متى شخت فإنك تمد يديك وآخر يمنطقك، ويحملك حيث لا تشـاء" (يو٢١:١٨)، إنه يشير بذلك إلى ضعف الطبيعة، لا إلى ضعف الإرادة.

٥ - إن تأثـير الطبيعـة يظهر دائمًا، بالرغم منا، ولا يسـتطيع أحد أن يتغلب على هذه الضـعفات، حتى لو كان ذا إرادة قوية وغَيرَة متقدة. ولا ضرر في ذلك، فهي بالنسبة لنا موضع إعجاب أكثر.

أى إتهـام يُقدم في أن إنسـان يخشـى الموت؟ على العكـس أى مديح ننـاله من إنسان يخشى الموت، وعلى الرغم من ذلك لا تدفعه تلك الخشية إلى الوضاعة في المشاعر والعواطف، فلا يلام الإنسان لكونه بطبيعة ذات ضعفات بل عندما يكون عبدًا لتلك النقائص. اما من يتجنب بقوة إرادته الضرر الذي يصيبه نتيجة هذه الضـعفات فهذا يُحسب إنسـانًا عظيمًا ومحلاً للإعجاب. إذ إنه يُظهر هكذا ما للإرادة من قوة، ويسكت أفواه القائلين: "لماذا لا نكون بالطبيعة أتقياء؟" وما هو الفرق بين أن نكون هكذا إن كنا بالطبيعة أم بالإرادة؟ شتّان بين الاثنين، فالأخيرة أسمى بكثير، إذ تُكسبنا الأكاليل والمجد العظيم.

٦ - للطبيعـة في الحقيقـة إسـهام كبير، لكن إذا امتلكـت إرادة فاعلة، تكون قد امتلكت كنزًا يفوق إسـهام الطبيعة. ألم ترى أجسـاد الشهداء، وقد نفذ فيها

السيف. تسقط أمام الحديد، وأما إرادتهم فلا تستسلم ولا تقبل الإنهزام؟ قل لى ألم ترى فيما يختص بإبراهيم، وكيف ظهر أن الإرادة كانت أقوى من الطبيعة، عندما صدر إليه الأمر أن يذبح ابنه (تك ٢٢: ١-١٨)، فكان ذلك واضحًا أن الأولى كانت أقوى من الثانية؟ ألم يبدو لك ذلك واضحًا في سلوك الثلاثة فتية (د ١ ٣: ٨-٣٠)؟ ألم تسمع المثل الشائع لدى الوثنيين الذي يقول إن الإرادة مع التعود طبيعة ثانية؟ وبالنسبة لى أؤيد الأولى كما أوضحت من قبل.

هل تدرك أنه من الممكن لإنسان ان يقتنى ثبات الطبيعة شرط أن تكون الإرادة فاعلة ويقظة، وبهذا يكسب مديحًا وافرًا إذا انحاز إلى الفضيلة عن رضى لا عن إكراه؟

٧ - من النافع والرائع ما يقوله ق. بولس: "بل أقمع جسدى واستعبده" (١كو ٩: ٢٧)، فهو يستحق المديح لكونه يجاهد ويكد في ممارسته للفضيلة مع المشقة، بحيث أن كل من يأتى بعده لا يستطيع أن يحتج بتساهله وتراخيه لتبرير ميوعته. وأنا أيضًا أضفر له إكليلاً لإرادته عندما يقول: "أنا صُلبت للعالم" (أنظر غلا ٦: ١٤).

نعم، من الممكن الإقتداء بقوة الطبيعة بتدريب شديد للإرادة. وإذا جعلنا نصب أعيننا هذا الرجل الذي هو في ذاته نموذجًا للفضيلة، نجد أن الصفات التي كان يتحلى بها بعامل إرادته، صارت ثابتة في قلبه كما لو كانت طبيعية فيه.

٨ - بالتأكيد أنه تألم حينما جُلد، ولكنه استخف بهذه الآلام، على ما يبدو كالملائكة التي لا أجساد لها، وذلك من خلال كلماته التي ربما تبدو وكأنها توعز لنا أنه لم يشاركنا طبيعتنا. فعندما يقول: "الذي به قد صُلب العالم لى وأنا

للعالم" (غلا ٦: ١٤)، وأيضًا: "مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيّ" (غلا ٢: ٢٠) فهل يعنى ذلك أنه فارق جسده؟ ثم عندما يقول: "أُعطيت شوكة في الجسد، ملاك الشيطان ليلطمنى.." (٢كو١٢: ٧)، فإن هذا التعبير لا معنى له سوى أنه يشير إلى أن آلامه كانت قاصرة على جسده وحده. وقد حاول هذا الألم أن يتسرب إلى نفسه، ولكن قوة إرادته حالت دون ذلك. وأيضًا عندما نطق بكلمات أخرى كثيرة أعجب من تلك، يعبر فيها عن ابتهاجه بالضربات التي يتلقاها، وفخره بالسلاسل التي تقيده (٢كو١١: ٢٤-٢٥، في ١: ١٢-١٤). فأى معنى أكثر يمكن إضافته على الكلام الذي أوردته مثل ذلك القول: "بل أقمع جسدى واستعبده، حتى بعد ما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسى مرفوضًا" (١كو٩: ٢٧)؟ إنه هنا يشير إلى ضعف طبيعته، بينما في الكلمات السابقة، فإنه يُظهر عظمة إرادته وقوتها.

٩ - ها نحن نرى أن كلا العنصرين يجتمعان معًا عنده، لئلا تظن أمام صفاته العظيمة أنه كان يملك طبيعة غير طبيعتنا فتخور عزيمتك، أو عندما ترى أن أعماله أقل شأنًا فتدين هذه النفس القديسة، بل على العكس، ضع أمامك هذا المَثَال وانطلق على مَثَاله طاردًا اليأس، ثابت العزم والعزيمة فيما هو لخلاصك الأبدى. لهذا نجده منشغلاً بالكلام عن نعمة الله في كثير مما يقول، لا عن عبث، بل عن حكمة، ليدعوك إلى التفكير أن لا شيء يصدر عنه بمفرده. ومع ذلك يؤكد دور إرادته، خشية أن تدع العمل لله، وأنت تغط في نوم عميق. هكذا تجد لديه كل شيء في الحياة في دقة ووضوح.

١٠ - لكنك قد تعترض على أن ق. بولس يومًا ما لعن إسكندر النحاس. وماذا في هذا؟ في الحقيقة، إن هذا الكلام لم يكن مبعثه الغضب بل كان عن ألم

وللدفاع عن الحق، إذ أن ذلك لم يكن بسبب أن ق. بولس تأذى منه شخصيًا، بل لأن هذا الرجل كان يتصدى للكرازة بالإنجيل إذ قال: "إنه لم يقاومنى أنا بل قاوم أقوالنا جدًا" (أُنظر ١تى ١: ٢٠، ٢تى ٤: ١٥). فهذا الدعاء يدل على حبه الشديد للحق، بل يعمل أيضًا على تحفيز التلاميذ، إذ إن الجميع كانوا في عثرة بسببه، إذ كانوا يرون أن من يسعى للإساءة للكلمة لا يُقمع، وهذا ما حمل ق. بولس على هذا الكلام. وقد لعن آخرين أيضًا عندما قال: ".. إذ هو عادل عند الله أن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقًا" (٢تس١: ٦). هذا ليس معناه أنه يرغب لهم في العقاب، حاشا لله، لكنه سعى في أن يعزى من أسيئت معاملتهم، لهذا أيضًا أضاف: "وإياكم الذين تتضايقون راحة" (٢تس١: ٧). وعندما تكون الضيقات موجهة إليه، فاسمعوه وانظروا حكمته في طريقة رده على هذه الهجمات إذ يقول: "نُشتم فنبارك. نُضطهد فنحتمل. يُفترى علينا فنعظ" (١كو ٤: ١٢، ١٣). أضف على ذلك، إنك لو أدعيت أن كلماته أو أعماله من جهة الآخرين كانت نابعة من غيظه، كان عليك أيضًا أن تقول أن ق. بولس، بدافع الغضب، أعمى عليم الساحر وسبه (أُنظر أع ١٣: ٨-١١)، أو تقول أن غضب بطرس كان سبب موت حنانيا وسفيرة (أع ٥: ٣-٥، ٩ و١٠) لا أحد ينقصه الذكاء وجاهل إلى الحد الذي يجعله يقول هذا الكلام، إذ أننا نجد أيضًا في أحوال كثيرة أخرى، أن ق. بولس يسلك بطريقة يبدو من الصعب احتمالها ظاهريًا، وهي منطوية في الحقيقة على عظمة صلاحه وعطفه، مثلاً عندما سلم إلى الشيطان ذلك الزانى من كورنثوس (١كو٥: ٣-٥)، فإنه في الحقيقة تصرف بمحبة عظيمة وبقلب يفيض رقة.

(٢٠) الشخصان هنا مختلفان: زانى كورنثوس (١كو ٥: ١-٥)، والرجل الذي أهان بولس في شخص أحد ممثليه. وكان هذا موضوع الكلام في الرسالة الثانية (٢كو ٢: ٨).

وقد وضع ذلك في رسالته الثانية[٢٠]. كذلك عندما يزجر اليهود بقوله: "قد أدركهم الغضب إلى النهاية" (١تس ٢: ١٦). فهو لا يتصرف عن سخط- لأنك على كل حال تسمعه يصلى من أجلهم بلا انقطاع- بل لأنه أراد أن يبث فيهم المخافة والحكمة الروحية العالية.

١١ - لكن يقال أنه شتم رئيس الكهنة بقوله: "سيضربك الله أيها الحائط المبيض!" (أع ٢٣: ٣). وأنا أعلم أن البعض برر هذا القول بأنها كانت نبوة، وأنا لا ألومهم في ذلك. فقد حدث هذا الأمر ومات الرجل على هذه الصورة. لكن قد يقول أحد هؤلاء المعارضين المماحكين المخالفين لهذا الرأى: لو قلنا بأنها نبوة، فلماذا دافع ق. بولس عن نفسه بقوله: "لم أكن أعرف أيها الإخوة أنه رئيس كهنة" (أع ٢٣: ٥). فإننا نجيب على ذلك من أجل منفعة الآخرين وحثهم على التعامل مع ذوى السلطة بما يليق، كما صنع المسيح نفسه، فإنه وإن قال كلام كثير بخصوص الكتبة والفريسيين، يعلن قائلاً: "على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه" (مت ٢٣: ٢، ٣). على هذا سلك ق. بولس أيضًا: فقد احترم كرامة شخصية رئيس الكهنة، وفي ذات الوقت تنبأ عن المستقبل.

١٢ - من الثابت أيضًا أن ق. بولس انفصل عن يوحنا (مرقس) (أع ١٥: ٣٧)، وكان ذلك عملاً يقتضيه صالح الكرازة بالإنجيل. إذ أنه من الضرورى لمن اضطلع بهذه الخدمة ألاّ يُظهر أى تهاون أو يعتريه الضعف، بل يكون شجاعًا وقويًا، وألاّ يتقدم لهذه المهمة النبيلة إن لم يكن في المقابل مستعدًا أن يجابه الموت والأخطار ألف مرة، كما أعلن المسيح ذلك بوضوح بقوله: "إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى" (مت ١٦: ٢٤). لأنه إذا لم يكن على

استعداد لذلك، سيقوده الجبن إلى إهمال عدد كبير من الناس الآخرين، وكان الأجدر به عندئذ أن يلبث حيث هو، وأن لا يهتم إلاّ بنفسه، عوض أن يجلس فى الصدارة ويحمل عبئاً فوق قدراته: إنه يُضيع نفسه، ويُضيع كل من أوكلوا إليه. أليس من الغريب أن ترى إنسانًا لا يعرف مهام القبطان، وفن مقاومة الأمواج، يقبل أن يجلس أمام دفة القيادة، لمجرد أن الناس أجبروه على هذا! بينما ترى على خلاف ذلك آخر يمضى للكرازة بالإنجيل دون أهلية وعلى غير استعداد، مُعرضًا الكثيرين للموت؟ لا، لا القبطان، ولا من يصارع ضد الوحوش ولا من اختار مهنة أن يكون جلادًا، ولا أى شخص آخر يمكن أن تكون له نفس مستعدة لمقاومة كل أنواع المِيتات والعذابات كالذي تجند للتبشير بالإنجيل. لأن الأخطار هنا أعظم، والخصوم أشد عنادًا، والعذابات ليست عادية: المكافأة هي السماء، جهنم هي العقاب، أى خلاص النفس أو هلاكها. فضلاً عن ذلك إن هذا ليس قاصرًا فقط على من يقوم بالكرازة بالإنجيل وحده بل أنه من واجب كل مؤمن، لأن وصية الإنجيل لحمل الصليب وتبعية المسيح هي للجميع بدون استثناء، فإن كان هذا الأمر للكل، فكم بالأولى على المعلّمين والرعاة والذين كان واحدًا منهم حينذاك يوحنا، المدعو أيضًا مرقس. لهذا تم استبعاده، وبحق، لأنه بعد أن وضع نفسه على خط القتال، في الجبهة، تصرف برخاوة كثيرة، ولهذا السبب استبعده ق. بولس عن الآخرين، حتى لا يؤثر تراخيه على قوة انطلاقهم.

١٣ – وإن ذكر لوقا إنه حصلت بينهم مشاجرة (أع ١٥: ٣٩)، فأنا لا أرى في هذا ما يدعو للملامة. وفي الحقيقة ليست مشاجرة بولس وبرنابا هي علامة على سوء النية، ما لم يحدث ذلك بدون سبب وبدون داع. فالكتاب يقول: "غضب الأثيم لا يمكن أن يبرر" (سيراخ ١: ٢٨). فليس هذا مجرد غضب

بـل غضـب جائـز. والمسـيح يقـول: "كل مـن يغضـب علـى أخيـه باطـلاً.." (مت ٥: ٢٢)، وليس "من غضب" وحسب، والنبى يقول أيضًا: "اغضبوا ولا تخطئوا" (أُنظـر مـز ٤: ٤). فلـو لم يكن لنا أن نسـتخدم هـذه القوة عنـد الحاجة، لكان وجودهـا في طبيعتنا من العبـث، وإن كان الأمر ليس كذلك، فالخالق جعلها فينا بغرض تقويم الخطـاة، وإيقاظ المتكاسـل، وإفاقة من هو مسـتغرق في النوم أو يحيا حياة التراخى، ومثل حد السـيف وضـع الله في قلبنا جميعًا حمية الغضب لكى ننتفع بها عند الحاجة. وهذا السبب الذي لأجله لجأ إليها ق. بولس مرارًا. وعندمـا كان يغضـب، كان أكـثر جـدارة بالإعجاب مـن أولئك الذيـن يمزجون أحاديثهم بالوداعة، لأنه كان يتصرف دائمًا وفق ما تقتضيه تلك اللحظة من أجل الكرازة بالإنجيل. فليست الوداعة وحسب في حد ذاتها فضيلة، بل الوداعة التي يقتضـيها الموقـف، فإذا لم يوجـد ذلك الموقف، كانت الوداعـة نوعًا من الميوعة، وكان الغضب نوعًا من الغطرسة.

١٤ - إنـى لم أقـل كل هـذا الكلام للدفـاع عن ق. بولس، فهـو ليس بحاجة إلى دفاعنـا، لأنـه لا ينـال المديح من البشـر، بل مـن الله. بـل كان الغرض هو تعليـم السـامعين أن يسـتخدموا كل شـيء في الوقت الملائم، كمـا قلت ذلك من قبـل. وهكـذا يكـون في مقدورنا أن نسـتفيد مـن كل فرصـة، وأن نبلـغ الميناء ونحن محمّلون بالخيرات، وننال الأكاليل المجيدة عسى أن نكون جميعنا مستحقين لهـذا بنعمـة ومحبة ربنا يسـوع المسـيح الـذي له المجـد والقـوة الآن وكل أوان وإلى دد. الدهور آمين.

العظة السابعة

القديس بولس الرسول كارزًا بالمسيح المصلوب

١ - كلما تقدم حاملوا أعلام الإمبراطور، يعلنون عن قدومهم إلى المدينة صوت الأبواق يتقدمهم عدد كبير من الجند، يتراكض الشعب كله كالعادة يسمعوا صوت البوق، ويشاهدوا العَلَم مرتفعًا في العلاء، كما يُبدون إعجابهم حامل العَلَم، وبما أن ق. بولس يدخل اليوم هو أيضًا، ليس مدينة واحدة بل لعالم كله، فلنتقدم إذن كلنا معًا. إنه يحمل هو أيضًا عَلَمًا، ليس لأحد من ملوك لأرض، بل صليب المسيح ملك السماء. والذين يسيرون أمامه ليس بشرًا، بل لائكته همّهم أن يكرّموا الشعار المحمول، ويحرسون من يمسكه بيده. فإذا ان الذين لا يهتمون غير بحياتهم الخاصة، ولا يؤدون أى عمل عام خصهم ب الكون بملائكة تحميهم، على حد قول يعقوب: "الملاك الذي خلصني من ل شر.." (تك ٤٨: ١٦)، فكم بالأولى تكون القوات السمائية بجانب من تولوا سئولية خلاص العالم، وحملوا مثل هذا الحِملَ بهذا القدر العظيم من النعمة، جل، إن من يُكرمون في العالم يرتدون ثيابًا خاصة وقلائد من ذهب، ويتألقون في شخصهم، أما ق. بولس فقد كان على خلاف ذلك مُقيدًا بسلسلة هي له في وقع الذهب، وحاملاً للصليب: إنه مُضطهد، مضروبًا، جائعًا.

٢ - لكن لا تحزن- ياصديقي الحبيب- لأن هذه الزينة الأخيرة أسمى وأثمن ن الأخرى، وهي التي يحبها الله. لهذا لم يتضجر ق. بولس من حملها. وهكذا، من أعجب الأمور أن القيود وضربات السياط جعلته متلألأ أكثر ممن يرتدى لأرجوان والتاج. نعم لقد كان أشد بهاءًا، وكلامى هذا ليس فيه مغالاة، كما

تشهد على ذلك ثيابه أيضًا، فإذا وضعت على أحد المرضى ألوف التيجان، ومثلها من ملابس الأرجوان لا تستطيع أن تجعل الحمى تتركه، أما إذا لمست ملابس ق. بولس (أع ١٩: ١٢) أجساد المرضى خرج منها كل مرض. فاللصوص يهربون بلا عودة عند رؤيتهم عَلَم الأمير عوض الاقتراب منه؟ حسنًا، فكم بالأولى تهرب الأمراض والشياطين، عند مرأى هذا العَلم السامى، أضف على ذلك إن ق. بولس كان يحمل هذا العَلَم، وأنه لم يكن منفردًا بحمله، بل كان يدعو الجميع إلى الإقتداء به في حَمَله. ولهذا كان يقول: "كونوا متمثلين بي معًا... كما نحن عندكم قدوة" (في ٣: ١٧)، وكذلك: "ما تعلمتوه، وتسلمتموه، وسمعتموه، ورأيتموه فيّ، فهذا افعلوا" (في ٤: ٩)، وكذلك: "لأنه قد وُهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط، بل أيضًا أن تتألموا لأجله" (في ١: ٢٩). ولئن رأينا، في الحياة الحاضرة أن الكرامات تزداد عظمة عندما تتجمع حول شخصية واحدة، فالعكس هو الصحيح على المستوى الروحى، إذ أن الكرامة تلمع ببهاء خاص عندما يشترك الكثيرون مع الرأس، وعندما يشعر المشترك بأنه ليس وحده الذي يتنعم بل معه كثيرون. وها أنت ترى جيدًا أن الجميع يحملون عَلَم المسيح، وأن كل واحد ذهب يحمل اسمه أمام شعوب وملوك، وأنه هو نفسه، ق. بولس، جابه الجحيم، وتحدى المآسى، لكن هذه الأشياء امتنع عن أن يطلبها من أحد، لأنه يعلم أن أولئك الرجال ما كانوا قادرين على حملها.

٣ - هل أدركت إلى أى درجة من الفضيلة يمكن أن تصل إليها طبيعتنا، وكيف أن لا شيء أثمن من الإنسان، حتى وإن كان ذلك الإنسان في طبيعة مائتة؟ من تستطيع أن تذكر أسمى من ق. بولس، أو حتى مساويًا له في الرتبة. كم من الملائكة ورؤساء الملائكة يعدل هذا الرجل الذي نطق بهذا الكلام! ذاك الذي

في جسد مائت وزائل يضحى بكل ما يملك لأجل المسيح بل وأكثر مما يملكه- فإنه ضحى بالأشياء الحاضرة، والآتية، والعلو، والعمق، وكل خليقة أخرى (رو ٨: ٣٨، ٣٩). هذا الرجل لو كان ذا طبيعة غير جسدانية، ماذا كان يقول؟، ماذا كان يفعل؟

إنى وإن كنت أُعجب بالملائكة فلأنهم أُعتبروا أهلاً للكرامة التي نالوها، لا لكونهم بلا جسد؟ فالشيطان أيضًا بلا جسد، ولا يُرى، ومع ذلك فهو أشقى كل الكائنات. لأنه أساء إلى الله الذي خلقه. وعلى ذلك نؤكد، والحالة هذه، أن البشر وإن كانوا تعساء، فهذا ليس لأن لهم جسدًا ،بل لكونهم لا يُحسنون استخدامه. القديس بولس أيضاً كان فى جسد. فمن أين أتته هذه العظمة؟ أتته من نفسه ومن الله بآن واحد، إذ أن الله: "لا يحابى الوجوه" (أع ١٠: ٣٤، رو ٢: ١١)، وإن قلت: كيف يمكن الإقتداء بأُناس مثله؟ فاسمع ما يقول: "كونوا متمثلين بى كما أنا بالمسيح" (١كو١١: ١). فهو قد اقتدى بالمسيح، وأنت ألاّ تستطيع أن تكون مثل من كان خادمه؟ هو سعى إلى منافسة سيده، وأنت ألاّ تسطيع أن تنافس خادمًا مثلك، أى نوع من الأعذار تستطيع أن تقدمه؟

٤ - لكن قل لى كيف يمكن الإقتداء بالمسيح؟ راجعوا الأمر من مرحلته الأولى، فما إن خرج من المياه الإلهية (المعمودية) حتى اندفع بغَيرَة ملتهبة حتى أنه لم يكن يستطيع أن يتروى منتظرًا مُعلّمًا: فلم ينتظر ق. بطرس، وقبل أن يجتمع بالقديس يعقوب أو بأى شخص آخر (غلا ١: ١٧) اشتعلت فيه الغَيرَة، فألهب المدينة حتى أنه ثارت في وجهه ثورة عنيفة (أع ٩: ٢٠-٢٥، ٢كو١١: ٣٢،٣). وحتى عندما كان يهوديًا كان يقوم بأعمال فوق مستواه، إذ كان يُوثق القيود، ويزج في السجون، ويصادر الممتلكات (أع ٩: ١، ٢، ٢٢: ٤، ٥). كذلك فعل

موسى، فإنه لم يتلق تكليفًا من أحد ليرفع ظلم الغرباء عن أبناء أمّته. إنها علامة نفس نبيلة، وقلب عظيم، يأبى أن يحتمل بصمت شقاء الآخرين، حتى لو لم ينل تكليفًا لذلك. فكون أن موسى محقًا أن يسارع إلى نصرة شعبه، فإن الله أيد عمله عندما أوكل إليه، فيما بعد، هذه المهمة. وهذا ما فعله أيضًا مع ق. بولس. فإن ق. بولس أيضًا أحسن التصرف، إذ ذاك عندما انطَلَقَ يُعلّم الكلمة. وقد أيد الله ذلك عندما رفعه إلى رتبة مُعلّمى الكنيسة.

٥ - لو كان سعى الرسل للحصول على الكرامات البشرية والمراتب، لكنا اتهمناهم بالحق أنهم يسعون وراء مصالحهم الشخصية، ولكن بما إنهم كانوا يفضلون المخاطر، ويتعرّضون لكل أنواع المهالك المميتة في سبيل خلاص البشر، جميع البشر، فمن المؤلم أن يُتهموا بمثل هذا الاتهام؟ لقد سلكوا في الحقيقة هذا المسلك لأنهم رغبوا بمنتهى الإخلاص في خلاص من كانوا في خطر الهلاك: وهذا ما أظهره حسنًا قرار الله، وما أظهره أيضًا هلاك هؤلاء التعساء الذين انجرفوا وراء الميل الذي ذكرناه. وهنالك آخرون سارعوا نحو السلطة، ووراء مركز الصدارة. ولكنهم ماتوا جميعًا، فمنهم من صار فريسة للنيران (قض ٩:٤٩)، ومنهم من كان فريسة لإبتلاع الأرض لهم (عدد ١٦:٣١،٣٢، تث ١١:٦). ذلك أنهم عُوضن أن يفكروا في حماية الآخرين، كانوا يسعون وراء المراكز الأولى، فعزّيا مثلاً تسرّع فأصيب بالبرص (٢أى ٢٦:١٦-٢١). وبالمثل سيمون، تسرع، فأخطأ وصار ملعونًا (أع ٨:١٨-٢٤)، والقديس بولس أيضًا اندفع، ولكنه نال الإكليل، لا إكليل الكهنوت والمرتبة العالية، بل إكليل الخدمة، والأتعاب، والمخاطر. وبما أنه انطَلَقَ بدافع الغَيرَة المتقدة، وبنشاط عجيب، فلهذا السبب يُنادى باسمه، ولأجل هذا منذ البدء صار مشهورًا.

٦ – كما أن من يتولى مسئولية القيادة، لو لم يقم بواجبه كما ينبغى، فإنه يستحق عقابًا أشد، كذلك، إذا قام أحد، بدون تكليف صريح، بمهمة ما، لا أقول هذا عن مهام الكهنوت، بل عن المهام التي يهتم فيها بالشعب؟ فهو جدير بكل مديح. لهذا لم يلجأ ق. بولس يومًا إلى الراحة، وهو الذي كانت غَيرته أشد اضطرامًا من النار، ولكنه منذ صعوده من الينبوع المقدس (ماء المعمودية) سَرَت في داخله نار مشتعلة وإزدرى بالمخاطر واستهزاءات اليهود واحتقارهم، أو قلة إيمانهم، أو أي صعوبة من هذا النوع، وتحوّلت عيناه إلى عينى محبة، وتحول عقله إلى عقل آخر، فانطلق بحركة مندفعة، كأنه السيل المتدفق، وأزاح في مسيرته كل مواقع اليهود المنيعة، مبرهنًا لهم من الكتب المقدسة أن يسوع هو المسيح (أع ٩: ٢٠-٢٢). ولم يكن بعد قد نال عدد كبير من المواهب الإلهية، لم يكن قد نعّم بالروح القدس بالدرجة التي صارت له، إلاّ إنه إلتهب في الحال، وراح يغالب نفسه، ويحاول أن يجد عذرًا عن سلوكه السابق، ويلقى بنفسه في المعركة الأشد عنفًا، والأكثر أخطارًا وهولاً.

٧ – ومع أنه أظهر هذا الإندفاع الشديد، وهذا السلوك النارى، إلاّ إنه كان وديعًا وطائعًا تجاه من كانوا يوجهونه، فيسير في مشورتهم. ومع ما كان عليه من حماس وغَيرَة، لم يقاوم مشورتهم. طلبوا منه السفر إلى طرسوس (أع ٩: ٣٠)، فلم يعارض، أشاروا عليه أن يتدلى في سلّ، فرضخ للأمر (أع ٩، ٢٥، ٢كو ١١: ٣٣)، نصحوه بأن يحلق شعره فلم يعارض (أع ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٦). لم يدعه التلاميذ يصعد إلى المسرح، فأطاع (أع ١٩: ٢٩-٣١). وكان في كل مواقفه لا يهدف إلاّ ما فيه خير المؤمنين، إلى السلام، إلى الوفاق، وكان يقظًا وساهرًا في سبيل الكرازة بالإنجيل.

٨ - وعلى ذلك عندما تسمع أن ق. بولس أرسل ابن اخته إلى الأمير (أع ٢٣: ١٦-١٨) لينجو من الأخطار، أو عندما رفع دعواه إلى قيصر (أع ٢٥: ١٠، ١١)، وانطَلَقَ مُسرعًا إلى روما، فلا ترى في هذه الكلمات علامة على الجبن، فالذي كان يئن من بقائه في العالم (رو ٨: ٢٣، ٢كو٥: ٤)، كيف لا يفضل صحبة المسيح على ما عداها؟ ذاك الذي كان لا يبالى بالسموات ولا بالملائكة لأجل المسيح، كيف يمكن أن تكون له رغبة في أمور الدنيا؟ فلماذا نراه إذن يتصرف هكذا؟ لكى ينصرف إلى الكرازة بالإنجيل؟، وينطلق من هذا العالم وهو مُحاط بعدد كبير من الناس المكلّلين بإكليل النصر. لقد كان يخشى في الحقيقة أن يغادر هذه الأرض فقيرًا لم يستطع أن يخلص غالبية الناس. ولهذا السبب كان يقول: "أبقى في الجسد ألزم من أجلكم" (في ١: ٢٤).

٩ - لهذا السبب أيضًا إذ رأى ق. بولس أن المجلس يميل إلى تبرئته، إذ قال أغريباس لفستوس: "كان يمكن أن يُطلق هذا الإنسان لو لم يكن قد رفع دعواه إلى قيصر" (أع ٢٦: ٣٢)، وهو مقيدّ، ومصحوب مع سجناء كثيرين ارتكبوا جرائم لا حصر لها؟، لم يخجل من قيوده، لكن على خلاف ذلك سهر على سلامة مرافقيه، مع عِلمَه بأنه لن يصيبه أى خطر، وكان في سلاسله، وفي عرض البحر، يفيض فرحًا، كما لو كان مُرسلاً لقضاء مهمة ذات أهمية. وفي الحقيقة كان مدعوًا لموقعة هامة، لتبشير مدينة روما. ومع ذلك لم يهمل رفقاءه في الرحلة، فقد أعاد إلى نفوسهم الصفاء عندما قص عليهم الرؤيا التي رآها، وهكذا عِلمَ الجميع أن الله وهبه أنفس جميع المسافرين معه (أع ٢٧: ٢٢-٢٥). وكان ق. بولس يقوم بهذه الأعمال، لا لكى يتباهى بنفسه، بل طلبًا لثقتهم فيه، والإنقياد له. ذلك هو السبب الذي لأجله سمح الله بهيجان البحر (أع ٢٧: ١٤-٤١)، وعلى كل

حال، إن النعمة التي في ق. بولس ظهرت، سواء أكان ذلك عندما رفضوا تعاليمه أم عندما قبلوها. فعندما أشار عليهم بعدم السفر في البحر (أع ٢٧: ١٠-٢١) لم يسمعوا له، جازوا أسوأ المخاطر، ومع ذلك حتى في مثل هذا الموقف، بدلاً من أن يكون عبئًا عليهم، كان يسهر على رعايتهم كما يسهر الأب على أبنائه (أع ٢٧: ٢٢-٢٥، ٣٣-٣٦)، ويعمل كل ما في وسعه لكى لا يهلك منهم أحد. وكم كان كلامه مملوء لطفًا بعد دخول روما (أع ٢٨: ١٧-٢٠)، وأيّة شجاعة كانت له عندما أغلق أفواه غير المؤمنين (أع ٢٨: ٢٥-٣١).

١٠ - إن المخاطر التي جازها ق. بولس كان تُزيده ثقة وجرأة، وليس هو وحده فقط، بل تلاميذه أيضًا. فلو كانوا رأوه منهارًا أو مستسلمًا للخوف لكان من الممكن أن ينهاروا هم أيضًا، ولكنهم إذا رأوه يزداد شجاعة، ويقابل الوقاحة والغطرسة بالإقدام، كانوا ينشطون في التبشير بالإنجيل مطمئنين. وهذا ما أوضحه حين قال: "وأكثر الإخوة، وهم واثقون في الرب بوثقى، يجترئون أكثر على التكلّم بالكلمة بلا خوف" (في ١: ١٤).

فعندما يبدى القائد الأعلى شجاعة، ليس عندما يقتل فقط، بل عندما يكون أيضًا جريحًا، يُزيد من هم تحت قيادته شجاعة، فإذا يراه أتباعه غارقًا في دمائه تغطيه الجروح، ومع ذلك صامدًا أمام العدو، ومُقاومًا بشجاعة مُمسكًا برمحه ومُقاتلاً بحماس غير مكترث لآلامه، فإنهم يشنون الحرب بأكثر جسارة لاسيما عندما يرون أن الجراح التي أصابته أكثر من تلك التي أصاب بها الأعداء، وهذا ما حدث تمامًا للقديس بولس، فعندما رآه تلاميذه في سلاسله ويبشر بالإنجيل في السجن، مجلودًا يجتذب إلى جانبه من يجلدونه، فأنهم أظهروا جرأة أكثر. لهذا السبب لم يكتف بقوله: "يجترئون أكثر" ولكنه أضاف: "على التكلّم بالكلمة

بلا خوف". وبكلام آخر: أصبح الإخوة يتكلّمون بجسارة أشد من جرأتهم عندما كان طليقًا. وكان هو أيضًا يشعر بحماس أكثر، ومُضاعفًا نشاطه ضد أعدائه. فبقدر ما كانت تزداد الاضطهادات، كان يزداد هو صمودًا وثقة. لقد كانت هذه الاضطهادات بالنسبة له نقطة إنطلاق إلى أفق أوسع.

١١ - على سبيل المثَال، فإنه ذات يوم، أُدخل إلى السجن، وكانت عيناه تلمعان ببريق حتى أن أساسات السجن تزعزعت، والأبواب انفتحت، وجذب السجّان إلى الإيمان (أع ١٦:٢٥-٣٤)، وفي موضع آخر كاد أن يؤمن القاضي بما يبشر به، حتى أنه قال له: "بقليل تقنعني أن أصير مسيحيًا" (أع ٢٦:٢٨)، ومرة أخرى كانوا يرجمونه (أع ١٤:١٩، ٢كو١١:٢٥)، وما أن دخل المدينة التي كان سكانها يرشقونه بالحجارة، حتى هداهم إلى الإيمان، وذات يوم أُستدعى أمام المحكمة ليحاكمه اليهود تارة (أع ١٨:١٢-١٦، ٢٢:٣٠-٣٢)، والأثينيون تارة أخرى (أع ١٧:١٨-٣٤)، فتحول القضاة إلى تلاميذ له، ومعارضيه صاروا من رعاياه. وكما أن النار حينما تجتاح مواد مختلفة، تلتهم كل ما تجده في طريقها وتزداد اضطراماً واشتعالاً، هكذا كانت كلمة ق. بولس، جذب إليه كل من كان على علاقة به، وكل من حاربوه أسَرهم بأحاديثه وصاروا بسرعة طعامًا لهذه النار الروحية. وبفضل هؤلاء أخذت الكلمة تتسع اتساعًا كبيرًا وتصل إلى أناسًا آخرين. ولهذا السبب قال: "الذي فيه احتمل المشقات حتى القيود كمذنب. لكن كلمة الله لا تُقيد" (٢تى ٢:٩). كان يُطرد، ويُلاحق، والنتيجة كانت رسالات ورسل إلى كل مكان. وما كان يفعلوه أصدقائه أو أتباعه، فعله أعداؤه بكونهم لم يتركوه يستقر في بلد واحدة، بل بفضل مكائدهم وملاحقاتهم. أرسلوا طبيب النفوس لكى يسمع العالم كله كلمته. وحينما كانوا يُعيدون تقييده مرة أخرى، فإنهم يُزيدونه نشاطًا،

وعندما طُرد تلاميذه من موضع كان يرسلهم إلى موضع آخر ليس فيه من يعلّم، ساقوه إلى المحكمة العليا فكان ذلك نعمة نالتها هذه المدينة العظيمة.

١٢ - ولهذا السبب عينه قال اليهود في اضطرابهم أمام الرسل: "ماذا نفعل بهذين الرجلين؟" (أع ٤: ١٦)، لأن الذي نصنعه معهم يُزيدهم تأثيرًا ونفوذًا، دفعوه إلى السجّان وطلبوا منه تشديد الحراسة عليه، فتحول السجّان وأصبح سجين ق. بولس بقوة أكثر، جعلوه يسافر مع المساجين لكى يتجنبوا فراره، ولكنه علّم أولئك المساجين كلمة الإيمان، جعلوه يسافر بحرًا، وهوذا الغرق الذي تعرضت له السفينة، كان له فرصة سانحة لتعليم من فيها، هددوه بألف عقوبة لكى يُخمدوا البشارة بالإنجيل، ولكن كلمة الإنجيل كانت تنتشر أكثر. وكما كان اليهود يقولون عن الرب: "لنقتله حتى لا يأتى الرومان ويأخذوا موضعنا وأمتنا" (اُنظر يو١١: ٤٨)، فإن العكس هو الذي حدث فإن الرومان لكونهم قتلوه، دمروا أمتهم ومدينتهم، وإذ ظنوا أنهم بهذا يُقيمون عائقًا أمام الكلمة، فإنهم شجعوا الكرازة بالإنجيل، كذلك فيما يتعلق بكرازة ق. بولس، فبقدر ما عمدوا إلى الدسائس لاستئصال الكلمة، بقدر ما زادوا في تأثيرها، ورفعوها إلى علو لم يُسمع به.

١٣ - فلنشكر الله الصانع العجائب لأجل كل هذه الخيرات، ولنعظم الطوباوى بولس الذي كان واسطتها، ولنصلّ حتى ننال نحن أيضًا هذه النِعَم، بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد مع الآب والروح القدس إلى دهر الدهور. آمين.

فهـــرس

صفحة

+ تمهـيد ٦

+ بين القديسين بولس وذهبى الفم ٨

+ صورة القديس بولس في هذه العظات ١٢

+ العظة الأولـــى: القديس بولس يتفوق على كافة القديسين ١٩

+ العظة الثـــانية: القديس بولس المثل الأعلى للفضيلة- محبته للمسيح ٢٩

+ العظة الثـــالثة: محبة القديس بولس الرسول للبشر ٣٦

+ العظة الـــرابعة: دعوة القديس بولس- معجزة انتشار الإنجيل ٤٣

+ العظة الخامسة: تدبير القديس بولس الرسول ٥٨

+ العظة السادسة: اللوم الموجه إلى بولس يُزيده عظمة ٦٩

+ العظة الســابعة: القديس بولس الرسول كارزًا بالمسيح المصلوب ٧٩

+ فهرس ٨٨